مؤسسة النخيل لتكوين المعلمين وتأطيرهم
في التعليم غير النظامي بهولندا والبلدان المجاورة.

P-ISSN: 3050-8959

E-ISSN: 3050-8886

مجلة فصائل

Fasa'il

العدد: 1

مجلة علمية دولية محكمة

دورية تصدر عن مؤسسة النخيل لتكوين المعلمين وتأطيرهم في التعليم غير النظامي بهولندا والبلدان المجاورة.

Fasa'il magazine a peer-reviewed international scientific journal published by the Annakhil Foundation for Teachers Training and Supervision in Non-Formal Education in the Netherlands and neighboring countries.

العدد الأول رجب 1446هـ الموافق يناير 2025م



مجلة علمية دولية محكمة

دورية تصدر عن مؤسسة النخيل لتكوين المعلمين
وتأطيرهم في التعليم غير النظامي بهولندا والبلدان
المجاورة.

Fasa'il magazine a peer-reviewed international scientific journal published by the Annakhil Foundation for Teachers Training and Supervision in Non-Formal Education in the Netherlands and neighboring countries.

شارك فى هذا العدد

د. حسن بوكبير — دة. سومية حكيم

د. هشام الهدار — د. عبد الله أخواض

د. أحمد الرزاقي — ذة. أسماء بابني

د. عبد العزيز أوتكوميت

العدد الأول رجب 1446هـ الموافق يناير 2025م

مجلة فسائل مجلة علمية دولية محكمة دورية

تصدر عن مؤسسة النخيل لتكوين المعلمين وتأطيرهم في التعليم غير النظامي بهولندا والبلدان المجاورة،

العنوان: P.C Hooftstraat 19, 5914VX Venlo Nederland

الهاتف : 647189251 31+ البريد الالكتروني : **info@annakhil.nl**

الرقم الدولي(ردمد): ISSN : e-ISSN 3050-8886

p-ISSN 3050-8959

مطبعة سجلماسة، مكناس المغرب، **الهاتف: 00212 670499738**

تصفيف وإخراج وتصميم الغلاف: مؤسسة النخيل لتكوين المعلمين وتأطيرهم في التعليم غير النظامي بهولندا والبلدان المجاورة

العدد الافتتاحي رجب 1446هـ الموافق يناير 2025م

مجلة فسائل

مجلة علمية دولية محكمة دورية

تصدر عن مؤسسة النخيل لتكوين المعلمين وتأطيرهم في التعليم غير النظامي بهولندا والبلدان المجاورة.

المدير:

الدكتور مصطفى عقلي

رئيس التحرير:

الدكتور يوسف عطية

مدير النشر:

الأستاذ بادي حميدي

هيئة التحرير والمراجعة اللغوية

الدكتور مصطفى عقلي

الدكتور يوسف عطية

الدكتورة عائشة أزويز

الدكتور ديدي عبد العزيز

الدكتور عبد الله أخواض

اللجنة العلمية والاستشارية

الدكتور يوسف العلوي

الدكتور عبد الرزاق مرزوك

الدكتور مولاي إدريس ميموني

الدكتور مولاي علي سليماني

الدكتورة نهاد الطبلاوي

الدكتورة زينب أبو علي

الدكتورة سومية حكيم

الدكتور أحمد الرزاقي

الأستاذ بادي حميدي

العدد الافتتاحي رجب 1446هـ الموافق يناير 2025م

شروط النشر بالمجلة

ترحب المجلة بنشر الأبحاث والدراسات العلمية المتعلقة باللغة العربية وعلومها والعلوم الشرعية والثقافية والحضارية، وبكل الأعمال ذات الصلة بأهداف المؤسسة التعليمية المكتوبة باللغة العربية أو الهولندية أو الفرنسية أو الإنجليزية. وفق الضوابط الآتية:

- ✓ أن يحترم المقال الشروط العلمية والأكاديمية المتعارف عليها؛
- ✓ ألا يكون المقال مستلا من أطروحة أو رسالة جامعية أو من كتاب قد سبق نشره أو مقدما للنشر في جهة أخرى؛
- ✓ أن يرفق المقال بنبذة مختصرة عن سيرة صاحبه ودرجته العلمية ومؤسسة الانتساب؛
- ✓ تخضع البحوث المقدمة للنشر للتحكيم على نحو سري، والمجلة غير ملزمة بتقديم التعليل في حالة عدم قبولها؛
- ✓ أن يلتزم الباحث بإجراء التعديلات المطلوبة من المحكمين؛
- ✓ ما ينشر في المجلة يعبر عن رأي صاحبه، ولا يعبر بالضرورة عن وجهة نظر المجلة؛
- ✓ أن يلتزم الباحث بمعايير البحث العلمي وقواعده، وأن يذيل بحثه بقائمة المصادر والمراجع؛
- ✓ لاتقدم المجلة تعويضات مادية عن نشر المقالات.

مواضعات تقنية:

- ✓ يرسل البحث إلى إدارة المجلة بصيغتي pdf وword
- ✓ خطوط اللغة العربية: يعتمد فقط خط Sakkal Majalla ، بحجم عادي، وبمقاس 16 في المتن، و12 في الحواشي. وفي العناوين الأساسية: مقاس 18 غليظ، وفي العناوين الفرعية: مقاس 16 غليظ.
- ✓ خطوط اللغات الأجنبية: يعتمد فقط خط Times New Roman ، بحجم عادي، وبمقاس 14 في المتن، و12 في الحواشي. وفي العناوين الأساسية: مقاس 16 غليظ، وفي العناوين الفرعية: مقاس 14 غليظ.
- ✓ لا يتجاوز عدد الصفحات 18 صفحة.
- ✓ مقاس حواشي الورقة: يترك هامش بمسافة 2.5 على اليمين، و2 سنتم في باقي حواشي الورقة. مع مسافة 1 سنتم بين الأسطر في المتن والهوامش.

- ✓ يبدأ كل بحث بالعنوان يليه اسم الكاتب مع بيان صفته الوظيفية والأكاديمية واسم المؤسسة العلمية التي ينتمي إليها.
- ✓ يصدر البحث بملخص لا يتجاوز 300 كلمة .
- ✓ أي بحث لا يستجيب للضوابط والمواضعات التقنية المذكورة أعلاه يستبعد تلقائيا دون النظر في محتواه.

للاتصال أو إرسال الأبحاث أو الاستفسار:

- البريد الإلكتروني للمجلة: info@annakhil.nl
- الموقع الإلكتروني للمجلة: https://www.annakhil.org

المحتويات الصفحة

كلمة افتتاحية..... 8
الدكتور مصطفى عقلي

كلمة العدد..... 9
الدكتور يوسف عطية

معالم وصُوى من التربية النبوية لجيل الصحابة رضوان الله عليهم..... 11
الدكتور حسن بوكبير

السيرة النبوية: نظرات في المفهوم والمنهج..... 29
الدكتورة سومية حكيم

التصرفات النبوية من خلال سيرته العطرة: المقاصد والامتداد..... 45
الدكتور هشام الهدار

السيرة النبوية وأفق الإنسانية الرحبة، قراءة في بعض المعالم..... 55
الدكتور عبد الله أخواض

معالم الدرس السيري في حفظ الأمن الاجتماعي..... 65
الدكتور أحمد الرزاقي

مراعاة النبي صلى الله عليه وسلم لواقع المدعوين..... 83
الدكتور عبد العزيز أوتكوميت

الرحمة في حياة النبي صلى الله عليه وسلم وتجليات عالميتها..... 99
الأستاذة أسماء بابني

كلمة افتتاحية

رغبة في مد جسور التواصل المعرفي والحضاري بين الباحثين، وأملا في إحراز النجاعة العلمية والتربوية، مطمح مؤسسة النخيل لتكوين المعلمين وتأطيرهم في التعليم غير النظامي بهولندا والبلدان المجاورة ومختلف شركائها، تبلورت فكرة إصدار مجلة **فسائل**، باعتبارها منبرا علميا تربويا وإشعاعيا لنشر الأبحاث والدراسات والأعمال ذات الصلة باهتمامات المؤسسة ومراميها العلمية والتكوينية التأطيرية في اللغة العربية وعلومها والعلوم الشرعية والثقافية والحضارية.

وبفضل النتائج الطيبة التي حققتها المؤسسة في مجالي التكوين والتأطير، منذ تأسيسها إلى الآن، وبالنظر إلى قيمة الندوات العلمية واللقاءات التأطيرية والدورات التكوينية التي أشرفت على إنجازها، أصبح من اللازم تثمين الجهود المبذولة والعمل على إفادة أكبر قدر ممكن من المهتمين بشؤون الجاليات العربية بهولندا والبلدان المجاورة وبقضاياها اللغوية والهوياتية والثقافية والحضارية... باحثين وخبراء ومستفيدين، من داخل هولندا وخارجها من البلدان الأوروبية ومن الدول العربية، عبر هذا الصرح العلمي التربوي والفضاء المعرفي التكويني.

لذلك، نعتبر إصدار مجلة **فسائل** انطلاقة لتدشين مرحلة جديدة في مشروع المؤسسة، يكون فيها البحث العلمي موجها لمختلف الأنشطة التعليمية والدورات التكوينية والورشات التدريبية...، تسهم فيها مختلف الفعاليات العلمية في المؤسسات الجامعية المتعاونة والمعاهد والجهات الشريكة، في أفق خلق مناخ علمي تربوي تشع منه قيم التسامح والحوار والاندماج الفعال.

أملنا أن نوفق، في إطار هذه المجلة الواعدة مجلة فسائل، في الإسهام في إرساء دعائم البحث العلمي والتعليمي الجاد في اللغة العربية وعلومها وفي العلوم الشرعية والثقافية الحضارية، وأن يكون هذا العدد الافتتاحي، بمضامينه المتنوعة، فاتحة خير وبشارة عطاء وتألق علمي في المستقبل.

الدكتور مصطفى عقلي

مدير المجلة

كلمة العدد

خُصص هذا العدد لأشغال الندوة العلمية التي نظمتها مؤسسة النخيل لتكوين وتأطير المعلمين في التعليم غير النظامي بهولندا والدول المجاورة بمناسبة ذكرى المولد النبوي، في موضوع:

"السيرة النبوية: دلالات ومقاصد"

يومي السبت والأحد18-19ربيع الأول 1444هـ موافق لـ15-16 أكتوبر2022م

تقديم

لا خلاف بين الباحثين في علم السيرة، أن مصطلح السيرة يدل في معناه اللغوي على السنة والمنهج والطريقة المتبعة حسنة كانت أم سيئة...، لكن عندما يرتبط هذا المصطلح بشخصية الرسول صلى الله عليه وسلم، فإنه تصبح له معاني أوسع ودلالات أعمق وأدق، وذلك بما تحتويه سيرته صلى الله عليه وسلم من أحداث ومواقف، وبما تقدمه من دروس وعبر، وبما تؤسس له من مناهج وقواعد في التفكير والممارسة، لا تكتسي أهميتها فقط من كونها تنتسب إلى رجل نجح في أن يكون خير قدوة في جميع المجالات ﴿**لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ**﴾ (الأحزاب: 21) بل بالإضافة إلى ذلك، فقد اصطفاه رب الأرض والسماوات لهذه المهمة، فزكاه في أخلاقه ﴿**وَ إِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ**﴾(القلم: 4) وجعل منه ومن رسالته رحمة للعالمين ﴿**وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِين**﴾(الأنبياء:107)، فكانت حياته وشمائله كلها متجهة في هذا المسار، وبذلك شكلت سيرته منهجا عاما وبرنامجا كاملا لمن أراد أن ينجح في أي موقع كان، "مما جعله القدوة الصالحة لكل داعية وكل قائد وكل أب، وكل زوج، وكل صديق، وكل مربي، وكل سياسي..."

إن ما تعانيه البشرية اليوم من تحديات وإشكالات وانحرافات عقدية وأخلاقية، تعددت ألوانها وأشكالها، زاد من حدتها تعدد النماذج والقدوات دون تمييز بين صالح وطالح، -يجعلها وأكثر من أي وقت مضى-بحاجة لسيرة خير البرية، وهي حاجة للنموذج الأقوم، الذي يحمل من المقومات والإمكانات، ما يجعل هذه الأمة تخرج من جاهليتها المعاصرة كما خرج سلفها من جاهليتهم سابقا، وتعود إلى موقعها الطبيعي في الشهادة على الناس.

وإنه رغم ما يثار حول سيرة سيد المرسلين من أكاذيب وشبهات، تحاول الطعن في صاحبها ومحاصرة فاعليتها وتعطيل مقاصدها وحجبها عن الناس، تتلاشى كلها وتضمحل أمام الأنوار الساطعة التي أضاءت الكون ببعثته صلى الله عليه وسلم، وأمام شمائله وأخلاقه العظيمة التي ينجذب إليها كل من اطلع عليها وعرفها.

ولذلك فإن مسؤولية الباحثين والمهتمين من أبناء هذه الأمة تتمثل اليوم في التعريف بسيرة نبي هذه الأمة، وببيان أهدافها ومقاصدها، وطرق تلقينها وإيصالها، سواء للخلف منها أو حتى لأعدائها، اقتداء وتأسيا بصاحب هذه السيرة صلى لله عليه وسلم، وهو الهدف العام الذي سعت إليه هذه الندوة العلمية.

تأسيسا على ما سبق سعت هذه الندوة العلمية، فيما سعت إليه، إلى الإجابة عن الأسئلة الآتية:

ما هي دلالات مفهوم السيرة النبوية؟ وإلى أي حد يمكن أن يشكل هذا المفهوم مدخلا معرفيا ومصدرا من مصادر المعرفة الإنسانية؟

ما الذي يميز سيرة النبي صلى الله عليه وسلم عن غيرها من السير؟ وما مقاصدها وأهدافها؟

هل يمكن للسيرة النبوية بما تضمنته من أحداث ومواقف وبما اشتملت عليه من شمائل وقيم، أن تشكل نموذجا عمليا وحلا جوهريا للإشكالات والتحديات التي تواجهها المجتمعات المعاصرة؟

وقد انتظمت مداخلاتها ضمن محورين كبيرين:

المحور الأول: المفاهيم- الأحداث- التصورات والتمثلات حول السيرة النبوية

المحور الثاني: القيم- الأهداف والمقاصد- علاقة وقائع السيرة بواقع الناس وتحدياتهم- علاقة السيرة النبوية بمختلف العلوم والحقول المعرفية الأخرى.

الدكتور يوسف عطية

رئيس التحرير

معالم وصُوى من التربية النبوية
لجيل الصحابة رضوان الله عليهم

الدكتور حسن بوكبير
أستاذ التعليم العالي
بالمركز الجهوي المهني للتربية والتكوين مكناس

مقدمة:

لا جرم أن السيرة النبوية منجم ثَرٌّ؛ لا تنقضي عطاياه كلما قصدناه، وصيدلية تحتوي على أدوية لكل الأدواء الفردية والجماعية، الخاصة والعامة، الفكرية والتنظيمية، الأممية والدولية، لكننا في زمن الضعف والتبعية للآخر اكتفينا فقط بالتبرك بها، كما نفعل مع كتاب ربنا وسنة نبينا أو أكثر، وإنما أنزل الله الوحي (كتابا وسنة) وبعث النبي قدوة، لنهتدي بهما إلى الصراط المستقيم، المفضي إلى السعادتين.

وبناء عليه، وجب إعادة النظر في تعاملنا الاحتفالي الشكلي مع السيرة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة وأزكى التسليم، واتخاذ منهج سديد في الاستمداد الراشد منها للإجابة عن إشكالات الفرد والمجتمع التي تزداد تعقيدا، مع هذا التطور التقني والعلمي الذي بلغ الثريا، بوتيرة سريعة تفوق الخيال، لكنه تطور منفصم عن الجانب الروحي والأخلاقي للبشرية. وتلك هي أم المعضلات، وعنها تتناسل جل المشكلات المعاصرة المستجدة، والأمراض المجتمعية التي لم تعرف في الأمم السابقة.

إن هذه المقدمة تدعونا إلى الإجابة عن سؤالين يبلغان حد الإشكال المعقد وهما:

- كيف صنع الرسول صلى الله عليه وسلم جيل الصحابة -رضوان الله عليهم- فصاروا خير القرون، في مدة قصيرة؟ وكيف حول مجتمعا طبقيا، متخلفا، متناقضا، قصير النظر، تحكمه أعراف قبلية جاهلية، رازح تحت هيمنة قوى عالمية منهارة تسودها الفوضى، إلى خير أمة، وأقوى دولة؟

- وهل بالإمكان تكرار هذه التجربة في زماننا هذا، الذي يتسم بهيمنة العقيدة الدهرية، وسيطرة القوى الاستعمارية الصليبية والصهيونية، فنعيد للبشرية البِشر والسعادة والطمأنينة المفقودة بهذا الدين العظيم وبنبي الرحمة صلى الله عليه وسلم؟

وقبل محاولة الإجابة عن هذين الإشكالين، لا بد من توطئةٍ لهما، متضمنة لتعريف خاص للسيرة النبوية، وبيان للقصد الأعظم من دراستها، وتقريب هذا القصد إلى التصور والإدراك بواسطة نماذج من تعامل الصحب الكرام رضوان الله عليهم مع الحبيب صلوات ربي وسلامه عليه وسيرته العطرة.

ثم إني لا أدعي أن هذه السطور الجامعة لهذه المداخلة -مهما بلغت من الاستقصاء والدقة- ستأتي بالجواب الكافي لإشكالات الموضوع، بل لن تعدو كونها نبشا فيها، إذ يحتاج الجواب عنها تداولا بالفكر الراشد السديد لقضاياها، وتكاثفا للأقلام الرسالية الربانية لاستخراج الوسائل التنفيذية للغايات المستمدة منها، والبرامج العملية للأجوبة الشافية المتحصلة من الدرس السيري بمنهج الإصلاح، والله من وراء القصد وهو يهدي السبيل.

أولا: في معنى السيرة النبوية.

قد لا تحتاج السيرة النبوية إلى تعريف لأن الكل يعلم أنها التاريخ المدون المكتوب عن قصة محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم، فهي من جنس السير الذاتية. لكنها تاريخ وقصة وسيرة ذاتية مختلفة عن باقي السير، فهي لأكمل بشر وأعظم رسول؛ وطئت قدمه ثرى الأرض، وأظلته خضراؤها، وكلم إنسها وجنها.. لذلك نحتاج إلى تعريف وظيفي بياني يقربنا من صاحبها صلى الله عليه وسلم، ومن المقصد الأسنى من دراسة سيرته العطرة، فهي من هذه الزاوية الخاصة: التطبيق العملي الأمثل والأكمل للوحيين من الإسوة الحسنة صلى الله عليه وسلم، أو هي الحكمة المصطفوية في تنزيل الوحيين، وبيانهما العملي.

وهذا البيان العملي لما نزل على رسول الله، هو أكمل وأقوى دلالة من غيره من أنواع البيان؛ إذ الفعل المصاحب للقول أبين وأفسر من القول منفصلا عنه، والقواعد والأصول الجامعة إذا لم تطبق على نماذج واقعية واضحة ممن يفقهها حق الفقه قد تخفى على غيره، فالنص القرآني في أغلبه مجموعة من القواعد والكليات الكبرى التي تحتاج إلى من يجسدها عمليا، وإلا تعددت وجوه المعاني فيه واضطربت فكان البيان النبوي حاسما وموجها. وهي بهذا تكون عين الحكمة، التي بدونها تصبح الأحكام بدون مقاصد ولا أسرار، وهي التي دعا أبو الأنبياء بها للرسول فقال: ﴿**رَبَّنَا وَ ابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ**﴾(البقرة: 128) فاستجاب الله دعاءه ومن بذلك على المومنين في قوله تعالى: ﴿**لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ**﴾(آل عمران: 164)

فهناك من فسر الحكمة الواردة في نص الآية بالسنة، وهي كذلك، لكنها تزيد عليها بمعاني وتوضيحات؛ فإذا كانت السنة مصدر الأحكام الشريعة، فالحكمة تضمنت الحِكَم والأحكام معا، أي الأحكام الشرعية العملية وأسرارها ومقاصدها...وعلى أساس من هذا التعريف يجب إعادة النظر في تعاملنا مع سيرة الرسول الأكرم، نقدا وتقويما، وهو ما سنحاوله في العنصرين التاليين:

ثانيا: التعامل مع السيرة النبوية بين الاحتفالية الشكلية[1]، والمنهج الراشد:

يمكن التمييز في التعامل مع السيرة النبوية بين منهجين كبيرين:

- المنهج الأول: تغلب عليه الاحتفالية الشكلية، وهو على ثلاثة مقامات:
- المقام الأول: وهو خارج عن نمط الشرع، ومظاهره متخلفة تسود في كثيرة من دول العالم الإسلامي، وقد لا تتجاوز ادعاء المحبة دون الاتباع الحق للمنهج المحمدي، لكنها في بعضها شرك وكفر به وأصحابها من شدة جهلهم يتعصبون لها، ويعتقدون أنهم يحسنون صنعا.
- المقام الثاني: ويكون بإظهار الفرح بقدوم ذكرى من سيرته، كذكرى المولد، والهجرة وغزواته وأيامه، وفي الطريقة والمقصد إليه حكمان: مشروع ومحظور.

(1). والاحتفاء: الاعتناء بالشيء، والاهتمام به، وقد يكون شكليا.

- المقام الثالث: ويقصد أصحابه الاقتداء بالرسول صلى الله عليه وسلم فيما لا يلزم من السنن الزوائد، أي في بعض المباحات والعادات، ومن فعل ذلك يؤجر باتفاق العلماء؛ من ذلك ما روى أنس رضي الله عنه أن خياطا دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم لطعام صنعه، قال أنس: "فذهبت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى ذلك الطعام، فقرب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم خبزا من شعير، ومرقا فيه دباء وقديد، قال أنس: فرأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يتتبع الدباء من حول الصحفة، فلم أزل أحب الدباء من يومئذ"(1)، وهذا الحسن بن علي، وعبد الله بن عباس وابن جعفر أتوا سلمى وسألوها أن تصنع لهم طعاما مما كان يعجب رسول الله صلى الله عليه وسلم(2)، وأجاب ابن عمر رضي الله عنهما عبيد بن جريج عن أمور رآه يصنعها، فقال: «وأما النعال السبتية: فإني رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يلبس النعال التي ليس فيها شعر ويتوضأ فيها، فأنا أحب أن ألبسها، وأما الصفرة: فإني رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يصبغ بها، فأنا أحب أن أصبغ بها»(3). والأمثلة على ذلك كثيرة مستفيضة وهي علامة على محبته

المنهج الثاني: ويكون بالاجتهاد في تجسيد المقصد الأعظم من دراسة السيرة على صاحبها أزكى الصلاة والسلام، ذلك بخطوات ثلاث متتالية ومترابطة:

- الخطوة الأولى: الفهم الصحيح لها؛ بالدرس والتعلم والفهم لأحداثها وتفاصيلها، وتمييز صحيحها من ضعيفها وإعمال المنهج السيري اللائق بقبول هذا الضعيف أو رده.[4]
- الخطوة الثانية: التلقي السديد لأحداثها وعلومها كلها، وربط ذلك بالوحيين، واستمداد الحلول الناجعة منها، للنوازل الخاصة والعامة، والإشكالات الفردية والجماعية والأممية والعالمية، فيصير تلقيها للتطبيق والعمل لا للتبرك فحسب.
- الخطوة الثالثة: العمل الرشيد بها في كل مناحي الحياة، أي الانتقال من النظر والتفاعل الإيجابي إلى العمل والحركة والتأثير في الواقع. ويتحقق هذا المقصد الكبير بثلاث صفات كلية جامعة:

1- الاقتداء عملا: ونقصد بذلك اكتساب العلم العملي المستمد من سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم، ذلك أن ادعاء محبته والاقتداء به لا يتحصل بمجرد الادعاء، أو قراءة البردة والشفا في المناسبات أو التخصص في سيرته والتمكن منها، بل يجب أن يتحول هذا الحب الشكلي الاحتفالي إلى عمل وتداول ومنهج حياة مهيمن عليها.

ومعلوم من استقراء الشريعة الغراء أن العلم المطلوب على سبيل الفرض، إنما هو العلم الذي تحته عمل، قال أبو إسحاق الشاطبي في موافقاته: «كل مسألة لا ينبني عليها عمل؛ فالخوض فيها خوض فيما لم

(1) صحيح البخاري كتاب الأطعمة، باب من ناول أو قدم إلى صاحبه على المائدة شيئا، حديث رقم(5123).

(2) الشفا بتعريف حقوق المصطفى، 27/2.

(3) صحيح البخاري كتاب اللباس، باب النعال السبتية وغيرها، الحديث رقم (5513).

(4) مقدمة كتاب السيرة النبوية الصحيحة للدكتور أكرم ضياء العمري

يدل على استحسانه دليل شرعي، وأعني بالعمل :عمل القلب وعمل الجوارح، من حيث هو مطلوب شرعا»[1].

وهذا التوجيه إلى العلم العملي «من أعظم المقاصد التي تحفظ على المسلم وقته، وجهده، وتكسبه الأجر، وتجنبه الوزر، مع العلم أن الواجبات أعظم من الأوقات، وأن الاشتغال بما ليس تحته عمل لا يكون إلا من جاهل بطّال، بل على العلماء أن لا ينشروا من العلم إلا الذي هذه صفته ف"ليس كل علم يبث وينشر، وإن كان حقا، وقد أخبر مالك عن نفسه أن عنده أحاديث وعلما ما تكلم فيها ولا حدث بها، وكان يكره الكلام فيما ليس تحته عمل»[2]

2- الحكمة منهجا: يجمع العلماء على أن الكتاب والسنة هما مصدرا كل العلوم الشرعية، وأن السيرة باعتبارها التطبيق العملي الأمثل لهما هي عين الحكمة، كما تمت الإشارة إليه، والاقتداء بها من هذا المنظور في كل مناحي الحياة؛ هو برهان على تمام العقل، ورفعة المنهج، وهو السر الأعظم للنجاح والفلاح.

لذلك كان من وظائف النبوة الثلاث: التلاوة، والتزكية، وتعليم الكتاب والحكمة. الحكمة بما هي وضع الشيء في محله الأكمل والأصلح، بناء على علم صحيح. فلا يستقيم إصلاح أو عمل صالح بدون هذه الثلاث. والحكمة تفضل من الله على أنبيائه وأصفيائه من الصالحين، قال الله تعالى: ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [سورة البقرة الآية269] وقال عن لقمان -ولم يكن نبيا على الراجح من الأقوال بل كان حكيما-: {وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ} [سورة لقمان: 12].

3- الرحمة تعاملا: قال القاضي عياض: « قال أبو بكر محمد بن طاهر: زين الله تعالى محمد صلى الله عليه وسلم بزينة الرحمة فكان كونه رحمة وجميع شمائله وصفاته رحمة على الخلق، فمن أصابه شيء من رحمته فهو الناجي في الدارين من كل مكروه والواصل فيهما إلى كل محبوب، ألا ترى أن الله تعالى يقول ﴿**وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين**﴾(الأنبياء: 10)»[3] ووصف في الكتب المبشرة به بأنه رسول المرحمة، وقال عن نفسه: أنا الرحمة المهداة، إن في سيرته كلها؛ في البيت، والمسجد، والسوق، ومع المؤمنين وغيرهم تسري رحمته ورأفته ولينه وتحننه وعطفه وتتجسد في شتى المواقف، فدل هذا العموم والاستيعاب لها في حياته من خلال الاستقراء، أن التعامل الحق والصواب مع المخالفين لنا قبل الموافقين أن يكون برحمة وشفقة، فنكون بذلك حقا متأسيين بسيرته مقتدين بها. وإن الاقتداء برسول الله صلى الله عليه وسلم لا يتحصل للمرء إلا بخطوتين تسبقه:

- الأولى: معرفته حق المعرفة.
- والثانية: وتحصل تلقائيا بعد الأولى، وهي محبته حق الحب.

(1) الموفقات:43/1، انظر تفصيل ذلك بالمقدمة الخامسة منه.

(2) الموافقات، 171/5.

(3) الشفا بتعريف حقوق المصطفى، 16/1.

ولا أدري كيف يدعي من يدعي محبته وهو لا يعرفه، ومن يدعي الاقتداء به وهو لم يذق طعم محبته حق محبته؟

الخطوة الأولى: معرفته صلى الله عليه وسلم

لا يأتي نبي أو رسول إلى قوم وهو مجهول الحال، فذلك مناقض لخصائص النبوة:﴿**قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِنْ قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ**﴾ (يونس: 1) وقال جل وعلا: ﴿**وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ**﴾(إبراهيم: 4)، لكن قد يسمع به من لا يعرفه فيتحتم عليه أن يتعرف على سيرته قبل بعثته، ويطلب دلائل نبوته بعدها، حتى يتأكد أنبي هو أم متنبئ؟ وكذلك كانت رحلة إيمان كثير من الصحابة الكرام، وهذه نماذج من الباحثين عنه كما رووها رضي الله عنهم:

مختصر عن قصة إسلام سلمان الفارسي رضي الله عنه:

كان سلمان رجلا فارسيا من أهل أصبهان من قرية يقال لها جي، وكان أبوه دهقان قريته، وكان من فرط حبه إياه يحبسه في بيته كما تحبس الجارية، واجتهد في المجوسية حتى كان قطن النار، لا يتركها تخبو ساعة.وأرسله والده إلى ضيعة له فمر بكنيسة من كنائس النصارى، فسمع تراتيلهم فيها وهم يصلون، قال: وكنت لا أدري ما أمر الناس، لحبس أبي إياي في بيته، فلما سمعت أصواتهم دخلت عليهم أنظر ما يصنعون، فلما رأيتهم أعجبتني صلاتهم ورغبت في أمرهم وقلت :هذا والله خير من الدين الذي نحن عليه، فو الله ما برحتهم حتى غربت الشمس، وتركت ضيعة أبي فلم آتها، ثم قلت لهم :أين أصل هذا الدين؟ قالوا :بالشام. فرجعت إلى أبي، وقد بعث في طلبي، فلما جئته قال :أي بني أين كنت؟ فحكيت له ما رأيت وسمعت، فخشي علي تبديل ديني، فحبسني في البيت وقيدني بالحديد.

فلما علم بركب من الشام خرج معهم حتى قدم الشام. فلزم أسقفها ليتعلم الدين، لكنه وجده رجل سوء فأبغضه، كان يرغب القوم بالصدقة، ويكتنزها لنفسه، حتى جمع منها سبع قلال مملوءة ذهبا وورقا. فلما مات كشف سلمان أمره للقوم، ودلهم على المال: فلم يدفنوه فصلبوه، ورجموه بالحجارة، وجاؤوا برجل آخر، فجعلوه مكانه، فكان رجلا فاضلا، قال سلمان: فما رأيت رجلا أفضل منه ولا أزهد في الدنيا، ولا أرغب في الآخرة، ولا أدأب ليلاً ونهاراً منه. فأحببته حباً لم أحبه شيئاً قبله. قال: فأقمت معه زماناً طويلاً، ثم حضرته الوفاة، فقلت له: إلى من توصي بي؟ وبم تأمرني؟ قال: أي بني، والله ما أعلم اليوم أحداً على ما كنت عليه، فقد هلك الناس، وبدلوا وتركوا أكثر ما كانوا عليه، إلا رجلاً بالموصل، وهو فلان، وهو على ما كنت عليه فالحق به.قال :فلما مات وغيب لحقت بصاحب الموصل، فقلت له :يا فلان، إن فلاناً أوصاني عند موته أن ألحق بك، وأخبرني أنك على أمره، فقال لي :أقم عندي، فأقمت عنده، فوجدته خير رجل على أمر صاحبه، فلم يلبث أن مات.فلما حضرته الوفاة، قلت له :يا فلان، إن فلانا أوصى بي إليك، وأمرني باللحوق بك، وقد حضرك من أمر الله ما ترى، فإلى من توصي بي؟ وبم تأمرني؟ قال: يا بني، والله ما أعلم رجلا على مثل ما كنا عليه، إلا رجلا بنصيبين، وهو فلان، فالحق به.فلما مات وغيب لحقت بصاحب

نصيبين، فوجدته على أمر صاحبيه. فأقمت مع خير رجل، فو الله ما لبث أن نزل به الموت، فلما حضر قلت له :يا فلان، إن فلانا كان أوصى بي إلى فلان، ثم أوصى بي فلان إليك، قال: فإلى من توصي بي؟ وبم تأمرني؟ قال :يا بني، والله ما أعلمه بقي أحد على أمرنا آمرك أن تأتيه إلا رجلا بعمورية من أرض الروم، فإنه على مثل ما نحن عليه، فإن أحببت فأته، فإنه على أمرنا.

فلما مات وغيب لحقت بصاحب عمورية، فأخبرته خبري، فقال :أقم عندي، فأقمت عند خير رجل، على هدي أصحابه وأمرهم .قال :واكتسبت حتى كانت لي بقرات وغنيمة. قال: ثم نزل به أمر الله تعالى، فلما حضر قلت له: إلى من توصي بي؟ وبم تأمرني؟ قال :أي بني، والله ما أعلمه أصبح اليوم أحد على مثل ما كنا عليه من الناس آمرك به أن تأتيه، ولكنه قد أظل زمان نبي، وهو مبعوث بدين إبراهيم عليه السلام، يخرج بأرض العرب، مهاجره إلى أرض بين حرتين، بينهما نخل به علامات لا تخفى، يأكل الهدية، ولا يأكل الصدقة، وبين كتفيه خاتم النبوة، فإن استطعت أن تلحق بتلك البلاد فافعل.

قال :ثم مات وغيب، ومكثت بعمورية ما شاء الله أن أمكث، ثم مر بي نفر من كلب تجار، فقلت لهم :احملوني إلى أرض العرب وأعطيكم بقراتي هذه وغنيمتي هذه، قالوا :نعم. فأعطيتموها وحملوني معهم، حتى إذا بلغوا وادي القرى ظلموني، فباعوني من رجل يهودي عبدا، فكنت عنده، ورأيت النخل، فرجوت أن يكون البلد الذي وصف لي صاحبي، ولم يحق في نفسي، فبينا أنا عنده، إذ قدم عليه ابن عم له من بني قريظة من المدينة، فابتاعني منه، فاحتملني إلى المدينة، فو الله ما هو إلا أن رأيتها فعرفتها بصفة صاحبي، فأقمت بها، وبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأقام بمكة ما أقام، لا أسمع له بذكر مع ما أنا فيه من شغل الرق، ثم هاجر إلى المدينة، فو الله إني لفي رأس عذق لسيدي أعمل له فيه بعض العمل، وسيدي جالس تحتي، إذ أقبل ابن عم له حتى وقف عليه، فقال :يا فلان، قاتل الله بني قيلة، والله إنهم الآن لمجتمعون بقباء على رجل قدم عليهم من مكة اليوم، يزعمون أنه نبي.قال سلمان: فلما سمعتها أخذتني العرواء،[1] حتى ظننت أني سأسقط على سيدي، فنزلت عن النخلة، فجعلت أقول لابن عمه ذلك:ماذا تقول؟ ماذا تقول؟ فغضب سيدي، فلكمني لكمة شديدة، ثم قال: ما لك ولهذا؟ أقبل على عملك.

قال :قلت: لا شيء، إنما أردت أن أستثبته عما قال.

قال: وقد كان عندي شيء قد جمعته، فلما أمسيت أخذته، ثم ذهبت به إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو بقباء، فدخلت عليه، فقلت له: إنه قد بلغني أنك رجل صالح، ومعك أصحاب لك غرباء ذووا حاجة، وهذا شيء قد كان عندي للصدقة، فرأيتكم أحق به من غيركم، قال :فقربته إليه، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأصحابه: كلوا، وأمسك يده فلم يأكل، فقلت في نفسي: هذه واحدة . ثم انصرفت عنه، فجمعت شيئا، وتحول رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة، ثم جئته به فقلت له :إني قد رأيتك لا تأكل الصدقة، وهذه هدية أكرمتك بها .قال: فأكل رسول الله صلى الله عليه وسلم منها، وأمر أصحابه فأكلوا

(1) أي الرعدة من البرد والانتفاض.

معه، فقلت في نفسي: هاتان ثنتان، ثم جئت رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو ببقيع الغرقد، قد تبع جنازة رجل من أصحابه وعلي شملتان لي، وهو جالس في أصحابه، فسلمت عليه، ثم استدرت أنظر إلى ظهره، هل أرى الخاتم الذي وصف لي صاحبي، فلما رآني رسول الله صلى الله عليه وسلم استدبرته عرف أني أستثبت في شيء وصف لي، فألقى رداءه عن ظهره، فنظرت إلى الخاتم فعرفته، فأكببت عليه أقبله وأبكي، فقال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم:تحول، فتحولت فجلست بين يديه، فقصصت عليه حديثي، فأعجب رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم أن يسمع ذلك أصحابه.

ثم شغل سلمان الرق حتى فاته مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، بدر وأحد. فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم لسلمان بالمكاتبة ليخلص من الرق، فكاتب على ثلاث مائة نخلة، وأربعين أوقية. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأصحابه: أعينوا أخاكم، فأعانوه بالنخل، وسقاها الرسول فلم تمت، وأعطاها مقدار بيضة من ذهب فوزنت أربعين أوقية، فحرر من الرق(1)

مختصر من قصة إسلام زيد بن سَعْنَة رضي الله عنه:

وكان من أحبار اليهود، أسلم وحسن إسلامه وشهد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم مشاهد كثيرة وتوفي في غزوة تبوك مقبلا إلى المدينة، وفي قصة إسلامه، قال القاضي عياض في الشفا: "جاءه زيد بن سعنة قبل إسلامه يتقاضاه دينا عليه، فجبذ ثوبه عن منكبه وأخذ بمجامع ثيابه وأغلظ له، ثم قال: إنكم يا بني عبد المطلب مطل. فانتهره عمر وشدد له في القول، والنبي صلى الله عليه وسلم يبتسم، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (وأنا وهو كنا إلى غير هذا منك أحوج يا عمر: تأمرني بحسن القضاء، وتأمره بحسن التقاضي، ثم قال: لقد بقي من أجله ثلاث، وأمر عمر يقضيه ماله، ويزيده عشرين صاعا لما روعه. فكان سبب إسلامه، وذلك أنه كان يقول ما بقي من علامات النبوة شيء إلا وقد عرفتها في وجه محمد، إلا اثنتين لم أخبرهما :يسبق حلمه جهله، ولا تزيده شدة الجهل إلا حلما، فأخبرته بهذا فوجدته كما وصف"[(2)]

مختصر من قصة إسلام الطفيل بن عمرو الدوسي رضي الله عنه:

كان الطفيل بن عمرو الدوسي يحدث أنه قدم مكة - ورسول الله صلى الله عليه وسلم بها - فمشى إليه رجال من قريش - وكان الطفيل رجلا شريفا شاعرا لبيبا - فقالوا له يا طفيل إنك قدمت بلادنا، وهذا الرجل الذي بين أظهرنا قد أعضل بنا، وقد فرق جماعتنا، وشتت أمرنا، وإنما قوله كالسحر يفرق بين الرجل وبين أبيه وبين الرجل وبين أخيه وبين الرجل وبين زوجته وإنا نخشى عليك وعلى قومك ما قد دخل علينا، فلا تكلمنه ولا تسمعن منه شيئا.

قال فو الله ما زالوا بي حتى أجمعت أن لا أسمع منه شيئا، ولا أكلمه حتى حشوت في أذني حين غدوت إلى المسجد كرسفا فرقا من أن يبلغني شيء من قوله وأنا لا أريد أن أسمعه. قال فغدوت إلى المسجد، فإذا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قائم يصلي عند الكعبة. قال فقمت منه قريبا، فأبى الله إلا أن يسمعني

(1) سيرة ابن هشام، 1/214-222 حديث إسلام سلمان الفارسي رضي الله عنه.

(2) الشفا بحقوق المصطفى، 1/108-109.

بعض قوله. قال فسمعت كلاما حسنا قال فقلت في نفسي :واثكل أمي والله إني لرجل لبيب شاعر ما يخفى علي الحسن من القبيح فما يمنعني أن أسمع من هذا الرجل ما يقول فإن كان الذي يأتي به حسنا قبلته وإن كان قبيحا تركته.

فتبعه حتى إذا دخل بيته دخل عليه، وأخبره بما جرى له مع قريش، ثم قال له: اعرض علي أمرك. فعرض عليه رسول الله - صلى الله عليه وسلم - الإسلام وتلا علي القرآن قال: فلا والله ما سمعت قولا قط أحسن منه ولا أمرا أعدل منه قال فأسلمت، وشهدت شهادة الحق وقلت :يا نبي الله إني امرئ مطاع في قومي، وأنا راجع إليهم وداعيهم إلى الإسلام فادع الله أن يجعل لي آية تكون لي عونا عليهم فيما أدعوهم إليه فقال: "اللهم اجعل له آية."، قال فخرجت إلى قومي، حتى إذا كنت بثنية تطلعني على الحاضر وقع نور بين عيني مثل المصباح فقلت :اللهم في غير وجهي، إني أخشى، أن يظنوا أنها مثلة وقعت في وجهي لفراق دينهم. قال فتحول فوقع في رأس سوطي. قال فجعل الحاضر يتراءون ذلك النور في سوطي كالقنديل المعلق وأنا أهبط إليهم من الثنية، قال حتى جئتهم فأصبحت فيهم.

قال: فلما نزلت أتاني أبي، وكان شيخا كبيرا، قال فقلت :إليك عني يا أبت فلست منك، ولست مني، قال ولم يا بني؟ قال قلت :أسلمت، وتابعت دين محمد - صلى الله عليه وسلم - قال أي بني فديني دينك، قال فقلت :فاذهب فاغتسل وطهر ثيابك، ثم تعال حتى أعلمك ما علمت. قال فذهب فاغتسل وطهر ثيابه. قال ثم جاء فعرضت عليه الإسلام فأسلم. قال ثم أتتني صاحبتي، فقلت :إليك عني، فلست منك ولست مني، قالت لم؟ بأبي أنت وأمي، قال قلت :قد فرق بيني وبينك الإسلام وتابعت دين محمد - صلى الله عليه وسلم - قالت فديني دينك، قال قلت :فاذهبي إلى حنا ذي الشرى فتطهري، فاغتسلت ثم جاءت فعرضت عليها الإسلام فأسلمت.

قال: ثم دعوت دوسا إلى الإسلام فأبطئوا علي ثم جئت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بمكة، فقلت له يا نبي الله أنه قد غلبني على دوس الزنا، فادع الله عليهم فقال: "اللهم اهد دوسا، ارجع إلى قومك فادعهم وارفق بهم، قال: فلم أزل بأرض دوس أدعوهم إلى الإسلام حتى هاجر رسول الله - صلى الله عليه وسلم -، ومضى بدر وأحد والخندق، ثم قدمت على رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بمن أسلم معي من قومي، وهو بخيبر حتى نزلت المدينة بسبعين أو ثمانين بيتا من دوس، فأسهم لنا مع المسلمين(1).

وإنما ضربنا مثلا بهذه القصص الثلاث للباحثين عن الحق، الذين أعملوا عقولهم في الدلائل والآيات، واتبعوا البراهين القطعية على خاتمية الرسول والرسالة، حتى نتأنق في سيرة غيرهم من الصحب رضوان الله أجمعين، فنقرأ سيرة الحبيب صلى الله عليه وسلم ونتعرف عليه حق المعرفة.

محبته صلى الله عليه وسلم:

(1) . الروض الأنف، 3/226-229.

وأما محبته الناتجة عن حسن معرفته، فهي من مقتضيات الإيمان وعلامة على صدقه، قال الله تعالى: ﴿**قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ**﴾(التوبة: 24)

عن أبي هريرة رضي الله عنه :أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (فوالذي نفسي بيده، لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من والده وولده)(1)، عن أنس قال :قال النبي صلى الله عليه وسلم: (لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من والده وولده والناس أجمعين)"(2).

ولقد ضرب أصحابه المثل الأعلى في حبه:

فهذا زيد بن الدثنة رضي الله عنه، ابتاعه صفوان بن أمية ليقتله بأبيه أمية بن خلف، وبعث به صفوان بن أمية مع مولى له يقال له نسطاس إلى التنعيم، وأخرجوه من الحرم ليقتلوه.

واجتمع رهط من قريش، فيهم أبو سفيان بن حرب فقال له أبو سفيان حين قدم ليقتل أنشدك الله يا زيد أتحب أن محمدا عندنا الآن في مكانك نضرب عنقه وأنك في أهلك؟ قال والله ما أحب أن محمدا الآن في مكانه الذي هو فيه تصيبه شوكة تؤذيه وأني جالس في أهلي. قال يقول أبو سفيان: ما رأيت من الناس أحدا يحب أحدا كحب أصحاب محمد محمدا؛ ثم قتله نسطاس يرحمه الله.(3)

قال عياض في شفائه: "ومن علامات محبة النبي صلى الله عليه وسلم كثرة ذكره له فمن أحب شيئا أكثر ذكره ومنها كثرة شوقه إلى لقائه فكل حبيب يحب لقاء حبيبه وفي حديث الأشعريين عند قدومهم المدينة أنهم كانوا يرتجزون: غدا نلق الأحبه * محمداً وصحبه(4)

ولما مات رسول الله توقف بلال بن رباح -رضي الله عنه- عن الأذان حزنا على فراق حبيبه الذي كلفه به دون الذي رآه في منامه، وبعد فترة اشتاق فاستأنف فأذن في مسجد الرسول، فبكى أهل المدينة جميعا شوقا لحبيبهم، ولما حضرته -رضي الله عنه- الموت قالت زوجه: واحزناه، فهتف يقول جذلا: بل واطرباه غدا ألقى الأحبة محمدا وصحبه، أو قال: محمدا وحزبه"(5).

الاقتداء به:

من علامات صدق حبه اتباع سنته قال القاضي عياض: "فالصادق في حب النبي صلى الله عليه وسلم، من تظهر علامة ذلك عليه.. وأولها الاقتداء به، واستعمال سنته، واتباع أقواله وأفعاله، وامتثال أوامره،

(1) صحيح البخاري، كتاب الإيمان، باب حب الرسول صلى الله عليه وسلم من الإيمان، حديث رقم (14)

(2) صحيح البخاري، كتاب الإيمان، باب حب الرسول صلى الله عليه وسلم من الإيمان، حديث رقم (15)

(3) الروض الأنف: 6/130-131.

(4)الشفا: 2/25.

(5) المرجع السابق: 2/23.

واجتناب نواهيه، والتأدب بآدابه في عسره ويسره، ومنشطه ومكرهه، وشاهد هذا قوله تعالى: «قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ».[1]

ومن مقتضيات الاقتداء به صلى الله عليه وسلم الجهاد في سبيل الله؛ كما جاهد وصحبه الكرام، جهادا بمراتبه الثلاث: جهاد النفس بالتربية وهو أشق، وجهاد الدعوة بتبليغ رسالته وفق منهجه الحِكمي، وجهاد السنان بقتال الكفار. وبهذا يتم ابتلاء النفس بنور الرسالة، وإشاعة خيريتها بين الناس.

ثالثا: صوى من بناء الرسول صلى الله عليه وسلم لجيل الصحابة:

ما أحوج الأمة اليوم إلى قراءة سيرته صلى الله عليه وسلم بمنهج الحكمة التي علمها لأصحابه، وما أحوج الدعاة خاصة إلى هذا الفقه الحِكمي، فما أوتينا إلا من قبل إضاعة منهج الرسول صلى الله عليه وسلم في تبليغ رسالات الله، وبناء الأمة الشاهدة، وإليكم صوى ومعالم من سيرته في تربية الرعيل الأول، جعلتها سبعة؛ تكثيرا لما تحتها من العلوم، والمعارف، والمنهج السديد الرشيد:

1. مَعْلَم طلب العلم وهو الأول والأعظم:

لو لم ينزل من الوحي غير قوله تعالى: "**اقرأ بسم ربك الذي خلق**" لكفى به أمرا موجبا لطلب العلم من المهد إلى اللحد؛ أَمَا وقد بلغت النصوص حد الكثرة التي يعسر معها العد في سياق الاستدلال فإن وجوب طلبه قد صار معلوما من الدين بالضرورة، لذا سنقتصر على نصوص من الكتاب والسنة تغني عن الاستقراء والاستقصاء، عسى أن نحيي في الأمة روح طلب العلم، وهمة الرقي في مدارجه التي لا حد لها ولا نهاية، وجعل ذلك من أولى أولوياتها، لأنه مبتدأ كل نهضة، وسر كل ريادة وقيادة...

فمن القرآن قول الله تعالى: ﴿**اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ، خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ، اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ، الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ، عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ**﴾ (العلق: 1 – 5) وقوله جل ثناؤه: ﴿**فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ**﴾(محمد: 19) وقوله جل جلاله: ﴿**وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ**﴾(العنكبوت: 43) وقوله تعالى: ﴿**إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ**﴾ **[فاطر: 28] وقوله تعالى:** ﴿**نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ**﴾(يوسف: 76) وقوله تعالى:﴿**وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ**﴾ (الإسراء: 36) وقوله تعالى: ﴿**قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ**﴾(النمل: 40) وقوله تعالى: ﴿**قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ**﴾(الزمر: 9)

ومن الحديث النبوي ما رواه أبو أمامة الباهلي، قال: ذكر لرسول الله صلى الله عليه وسلم رجلان أحدهما عابد والآخر عالم، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «فضل العالم على العابد كفضلي على أدناكم»[2]وعن كثير بن قيس، قال: كنت جالسا عند أبي الدرداء في مسجد دمشق، فأتاه رجل، فقال: يا أبا

(1) الشفا: 24/2.

(2) سنن الترمذي، أبواب العلم، باب ما جاء في فضل الفقه على العبادة ر.ح: 2685

الدرداء، أتيتك من المدينة، مدينة رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ لحديث بلغني أنك تحدث به عن النبي صلى الله عليه وسلم: قال: فما جاء بك تجارة؟ قال: لا، قال: ولا جاء بك غيره؟ قال: لا، قال: فإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «من سلك طريقا يلتمس فيه علما، سهل الله له طريقا إلى الجنة، وإن الملائكة لتضع أجنحتها رضا لطالب العلم، وإن طالب العلم يستغفر له من في السماء والأرض، حتى الحيتان في الماء، وإن فضل العالم على العابد كفضل القمر على سائر الكواكب، إن العلماء ورثة الأنبياء، إن الأنبياء لم يورثوا دينارا ولا درهما، إنما ورثوا العلم، فمن أخذه أخذ بحظ وافر»[1]

وعن أبي سلمة بن عبد الرحمن بن أبزى، عن أبيه، (**عن رسول الله أنه: خطب للناس قائما، ثم قال: ما بال أقوام لا يعلمون جيرانهم، ولا يفقهونهم، ولا يعظونهم، ولا يأمرونهم، ولا ينهونهم**)[2] وقال صلى الله عليه وسلم «إنما بعثت مبينا معلما»(3)

فهل بعد هذا الفضل وهذه المنزلة وهذا التبجيل للعلم والعلماء، وبعد هذه النوالات العظام لطالب العلم...وهل بعد هذا الغضب النبوي على من لا يُعَلم ولا يتعلم، والنعي والتحقير لمن يجهل ويحسب أنه على شيء... يبقى لنا من عذر في التقاعس والتهاون عن طلب كل علم جالب للمنافع دافع للمضار الدنيوية والأخروية، وعلى رأسه علوم الشريعة الغراء (4).

وإن كل مشاكل الأمة عامة، والعاملين للإسلام خاصة، التي يتخبطون فيها، يمكن حصرها واختصارها في أصلين اثنين؛ وهما وجهان لعملة واحدة: الجهل، أو ضعف المنزع العلمي من جهة، ومن جهة ضعف الوازع الأخلاقي والتربوي. ولذلك جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم بوظائف ثلاث: التلاوة والتعليم والتزكية: ﴿**كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولا مِنْكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ**﴾ (البقرة: 151)

2. **مَعْلَم وضوح الفكرة وسيادتها وسيطرتها على كيان الصحابة**، إذ كانوا -رضي الله عنهم- بمجرد إعلانهم الدخول في الإسلام يدركون جيدا ما لهم وما عليهم، ويفهمون حقيقة الدين وأسسه، ومراتب الأحكام فيه، ومراتب الأعمال، وما يجوز فيه الاختلاف وما لا يجوز، فلم تكن تلتبس عليهم المدارك، ولا يتخبطون في قضايا حسمها الشرع، ولا يقدمون ما حقه التأخير ولا العكس. وتلكم من خصائص ومعالم اصطفائهم، ليكونوا -فعلا-خير القرون الذين يحتذى بهم، فهذا أبو بكر الصديق -رضي الله عنه- لما عرض عليه رسول الله - صلى الله عليه وسلم- الإسلام ما تردد عند ذلك، بل سأله عما يقتضيه الإيمان من العمل، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: عملك عملي. فانطلق يدعو الناس لدين الله فآمن على يده خلق

(1) سنن ابن ماجه، افتتاح الكتاب في الإيمان وفضائل الصحابة والعلم، باب فضل العلماء والحث على طلب العلم ر.ح: 223.

(2) عمدة القاري شرح صحيح البخاري، كتاب التيمم، باب التيمم للوجه والكفين ج4/ 21حديث رقم: 333،

(3) التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد؛ لابن عبد البر، 124/16.

(4) انظر كتاب: "مفهوم العالمية" للدكتور فريد الأنصاري، فقد أجاد فيه وأفاد وأبدع -رحمه الله- إذ بين حقيقة العالم الرباني، وأوضح السبيل إلى بلوغ درجته.

كثير. قال ابن إسحاق: " فأسلم بدعائه - فيما بلغني - عثمان بن عفان بن أبي العاص بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف بن قصي بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب، والزبير بن العوام بن خويلد بن أسد بن عبد العزى بن قصي بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي. وعبد الرحمن بن عوف بن عبد عوف بن عبد بن الحارث بن زهرة بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي، وسعد بن أبي وقاص، واسم أبي وقاص مالك بن أهيب بن عبد مناف بن زهرة بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي. وطلحة بن عبيد الله بن عثمان بن عمرو بن كعب بن سعد بن تيم بن مرة بن كعب بن لؤي، فجاء بهم إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - حين استجابوا له فأسلموا وصلوا، وكان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يقول فيما بلغني" :ما دعوت أحدا إلى الإسلام إلا كانت فيه عنده كبوة ونظر وتردد إلا ما كان من أبي بكر بن أبي قحافة ما عكم عنه حين ذكرته له وما تردد فيه"[1].

وكل من دعا من الصحابة إلى رسالة الإسلام، إلا جاء ببيانها أتم البيان وأروعه، فهذا جعفر بن أبي طالب حين سأله النجاشي عن الإسلام، قالت أم سلمة: "قال له أيها الملك كنا قوما أهل جاهلية، نعبد الأصنام، ونأكل الميتة، ونأتي الفواحش، ونقطع الأرحام، ونسيء الجوار، ويأكل القوي منا الضعيف، فكنا على ذلك حتى بعث الله إلينا رسولا منا، نعرف نسبه، وصدقه، وأمانته، وعفافه، فدعانا إلى الله لنوحده ونعبده، ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان، وأمرنا بصدق الحديث، وأداء الأمانة، وصلة الرحم، وحسن الجوار، والكف عن المحارم والدماء، ونهانا عن الفواحش، وقول الزور، وأكل مال اليتيم، وقذف المحصنات، وأمرنا أن نعبد الله وحده - لا نشرك به شيئا - وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام، قالت فعدد عليه أمور الإسلام - فصدقناه وآمنا به واتبعناه على ما جاء به من الله فعبدنا الله وحده فلم نشرك به شيئا، وحرمنا ما حرم علينا، وأحللنا ما أحل لنا، فعدا علينا قومنا، فعذبونا، وفتنونا عن ديننا، ليردونا إلى عبادة الأوثان عن عبادة الله تعالى، وأن نستحل ما كنا نستحل من الخبائث فلما قهرونا وظلمونا وضيقوا علينا، وحالوا بيننا وبين ديننا، خرجنا إلى بلادك واخترناك على من سواك، ورغبنا في جوارك، ورجونا أن لا نظلم عندك أيها الملك .قالت فقال له النجاشي :هل معك مما جاء به عن الله من شيء؟ قالت: فقال له جعفر: نعم، فقال النجاشي: فاقرأه علي، قالت: فقرأ عليه صدرا من[كهيعص] {مريم:1} قالت فبكى والله النجاشي، حتى اخضلت لحيته، وبكت أساقفته حتى أخضلوا مصاحفهم حين سمعوا ما تلا عليهم، ثم قال النجاشي :إن هذا والذي جاء به عيسى ليخرج من مشكاة واحدة انطلقا، فلا والله لا أسلمهم إليكما، ولا يكادون [2]

وبنفس البيان وأتمه أجاب الصحابي ربعي بن عامر حين سأله رستم قائد الفرس: ما جاء بكم؟ فقال:الله ابتعثنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام، فأرسلنا بدينه إلى خلقه لندعوهم إليه؛ فمن قبل ذلك قبلنا منه ورجعنا عنه، ومن أبى قاتلناه

(1) الروض الأنف: 294/2.

(2) الروض الأنف، 150/3-152.

أبدا حتى نفضي إلى موعود الله، قالوا :وما موعود الله؟ قال :الجنة لمن مات على قتال من أبى، والظفر لمن بقي"[1].

لقد لخص ربعي رضي الله عنه في جمل موجزات، مقاصد هذا الدين، ولا يتأتى هذا إلا لفقيه مستوعب لدينه، ذي عقل عظيم، وكذلك كان الصحابة أجميعن.

3. مَعْلَم الجهاد للفكرة بالنفس والنفيس: ذلك أن كل فرد من الرعيل الأول كان يؤمن أنه المسؤول عن هذا الدين، وعن حفظ بيضة الأمة المؤمنة، بل وعن سعادة البشرية جمعاء؛ فلم يكونوا عالة على الدعوة، أو كلالا على إخوانهم الآخرين؛ فلو احتملنا أن قضي على كل مؤمن بهذا الدين، وبقي منهم واحد، ما تردد في إقامته والهلاك دونه، والموت على ما مات عليه إخوانه. ولله در أنس بن النضر رضي الله عنه -وهو عم أنس بن مالك وبه سمي-لما انتهى في غزوة أحد"إلى عمر بن الخطاب، وطلحة بن عبيد الله، في رجال من المهاجرين والأنصار، وقد ألقوا بأيديهم فقال: ما يجلسكم؟ قالوا :قتل رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال: فماذا تصنعون بالحياة بعده؟ "قوموا "فموتوا على ما مات عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم استقبل القوم فقاتل حتى قتل"[2]، وكانت رحلة الواحد منهم إلى أقاصي البلدان في تجارة أو رحلة دعوية سببا في دخول بلدان وقبائل ودول من أسيا وإفريقيا وأوروبا إلى الإسلام.

4. مَعْلَم توحيد التلقي من الوحي لبناء الشخصية المسلمة ليكون إليه المحتكم في كل أمورهم، ذلك أن التخليط في البناء من مصادر ثقافية متنوعة أو متضادة تؤدي إلى الانفصام الفكري والنفسي والعملي للفرد كما تؤدي إلى التصدع في جسم الأمة، وهو أمر ملاحظ في تاريخ الحضارات والدول.

إن نشأة وقيام أي كيان إصلاحي أو ثوري يتطلب من أصحابه توحيد التلقي، وصفاءه وقوته في روع المتلقي، وأن لا يجعل لأي ثقافة مغايرة مكانا للمنافسة أو الامتزاج مع الأصل، وإلا ضاع الاتجاه، وتحول المقصد والمرام.

وهذا لا يعني البتة الانغلاق، وإرهاب وقمع من ينفتح على الثقافات الأخرى، لكن الانفتاح على الغير يجب أن يعتمد على غربال الأصول والمصادر البانية، فتعرض عليها كل الثقافات والمعارف فإن كانت غير مصادمة ولا مخالفة لها، تستوعب وتهضم داخل الآلة العظمى لهذه الأصول فتزيدها قوة إلى قوتها، وإلا فستصبح سبب فنائها؛ كما طلبت قريش من رسول الله صلى الله عليه وسلم في مكة أن يعبدوا الله ويوحدوه عاما ويعبد المسلمون آلهتهم عاما، فنزل القرآن حاسما لمثل هذه الأفكار في سورة الكافرون المسماة المقشقشة[3]قال جل ثناؤه: ﴿**قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ، لا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ، وَلا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ، وَلا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ، وَلا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ، لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ**﴾. قال الواحدي وفي سبب نزولها: نزلت في

(1) حياة الصحابة للكاندهلوي، 1/258-259.

(2) الروض الأنف: 5/332

(3) قال الشيخ الطاهر بن عاشور: "قال في الكشاف والإتقان: وتسمى هي وسورة: "قل هو الله أحد" المقشقشتين لأنهما تقشقشان من الشرك، أي تبرئان منه يقال: قشقش: إذا أزال المرض" التحرير والتنوير:30/579.

رهط من قريش قالوا :يا محمد هلم فاتبع ديننا ونتبع دينك، تعبد آلهتنا سنة ونعبد إلهك سنة، فإن كان الذي جئت به خيرا مما بأيدينا كنا قد شركناك فيه وأخذنا بحظنا منه، وإن كان الذي بأيدينا خيرا مما في يدك كنت قد شركتنا في أمرنا وأخذت بحظك، فقال" :معاذ الله أن أشرك به غيره"، فأنزل الله تعالى: ﴿**قل يا أيها الكافرون**﴾ إلى آخر السورة، فغدا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إلى المسجد الحرام وفيه الملأ من قريش، فقرأها عليهم حتى فرغ من السورة، فأيسوا منه عند ذلك[1].

وعن جابر عن النبي صلى الله عليه وسلم :حين أتاه عمر فقال: إنا نسمع أحاديث من يهود تعجبنا، أفترى أن نكتب بعضها؟ فقال: «أمتهوكون أنتم كما تهوكت اليهود والنصارى؟ لقد جئتكم بها بيضاء نقية ولو كان موسى حيا ما وسعه إلا اتباعي»[2] وفي رواية :أن النبي صلى الله عليه وسلم غضب حين رأى مع عمر صحيفة فيها شيء من التوراة وقال أفي شك أنت يا ابن الخطاب ألم آت بها بيضاء نقية، لو كان أخي موسى حيا ما وسعه إلا اتباعي. إن توحيد التلقي لمن أعظم الأسباب التي أنتجت ذلك الجيل المتميز من الصحابة الكرام، والتي سرعت بانتشار هذا الدين، والحفاظ عليه من التحريف والأخلاط.

5. مَعْلَم الإيجابية التربوية: ونقصد بها أسلوب النبي في معالجة الاختلالات التربوية والرقي بالأنفس المؤمنة في مدارج الكمالات البشرية؛ فعند كل حدث ينزل بالصحابة أو بغيرهم كان صلى الله عليه وسلم يصقل النفوس ويجليها، فلا يكاد يقع عليها من كدر حتى تطهر بمطهرات الإصلاح النبوي، فإذا وجد منهم زكاة نفس وصلاح عمل عززه، وإذا ظهر منهم إرادة للدنيا وميل إلى نعيمها عالج قلوبهم وعقولهم فكان لها طبيبا مداويا ...فكان صلى الله عليه وسلم يرعاهم على الدوام، والأمثلة أكثر من أن تحصى، فذلك معلم واضح تلمسه في حياته كلها ساعة ساعة ودقيقة دقيقة، مع كل صحبه الكرام.

6. مَعْلَم القيادة الربانية: لم يكن لمقامِ النبوة الرفيعِ، ولشخصية النبي القوية الجذابة، أن تجعل منه صلى الله عليه وسلم قائدا مهيمنا يميت كل الطاقات المبدعة والفاعلة ويحرمها من المشاركة في صناعة الأمة الجديدة والدولة الوليدة؛ إن النظر في كيفية صناعة الرسول صلى الله عليه وسلم القادة، لمن أهم المعالم والصوى التي افتقدها كثير من أهل الدعوة ورجال الدولة في كثير من الأزمنة وخاصة في هذا الزمان... فهذا الصحابي الجليل جليبيب -رضي الله عنه- كان حليفًا للأنصار، وكان الرسول يحبه، روى ثابت البُناني عن أنس بن مالك -رضيَ الله عنه- أنّ صحابي يقال له جُليبيب كان وجهه بشعًا، جاء إلى رسول الله فعرض عليه رسول الله أن يزوّجه، فوصف نفسه لرسول الله فقال عن نفسه أنّه كاسد، فردّ عليه رسول الله -صلّى الله عليه وسلّم- فقال: "غيرَ أنَّكَ عند اللهِ ليس بكاسِدٍ"[3].

(1) أسباب النزول:467.

(2) شعب الإيمان للبيهقي كتاب الإيمان بالقرآن المنزل على نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، وسائر الكتب المنزلة على الأنبياء صلوات الله عليهم أجمعين، ذكر حديث جمع القرآن، ج200/1. حديث رقم: 176،

(3) المسند المصنف المعلل، حرف الألف، أنس بن مالك الأنصاري، حديث رقم(1641)

ولما كانت غزوة أحد أبلى البلاء الحسن، ثم استشهد، عن أبي برزة، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لقي العدو فقال: هل تفقدون من أحد؟ «قالوا: نعم، فقدنا فلانا وفلانا فقال» :هل تفقدون من أحد في الثانية؟ «قالوا: لا قال» :لكني أفقد جليبيبا، انطلقوا فالتمسوه في القتلى «فإذا هو قتل إلى جنبه سبعة، قد قتلهم، ثم قتلوه فأتي النبي صلى الله عليه وسلم فأخبر فجاء حتى قام عليه فقال : هذا مني، وأنا منه، قتل سبعة، ثم قتلوه، هذا مني، وأنا منه، قتل سبعة، ثم قتلوه «يقولها مرتين، ثم حمله على ساعده، ما له سرير إلا ساعد النبي صلى الله عليه وسلم حتى حفر له، ودفن ولم يكن له غسلا"[1].

7. **معلم التدريب على ضبط النفس** ولجمها بحَكَمة الحِكْمة، والتصرف وفق مصلحة الإسلام، فمعلوم من طبع العربي في الجاهلية الشجاعة والهبوب إلى النجدة، وفورة الدم والعصبية للقبيلة، فلما جاء الإسلام سعى إلى تغيير هذا الطبع وتوجيهه، فأمرهم بضبط النفس، والتحكم في المشاعر والتصرفات، وفق ما جاءت به الشريعة، فنهاهم عن القتال وأمرهم بالصلاة والزكاة والقيام بالدعوة إلى أن صاروا قادرين على القتال في سبيل الله؛ لتكون كلمة الله هي العليا، وكلمة الذين كفروا السفلى، وذلك بعد أربع عشرة سنة من هذا التدريب على ضبط النفس، فقال لهم الله جل جلاله: ﴿**أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ، الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ، وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا، وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ. الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَ آتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ**﴾ (الحج: 37-39).

روى البخاري في صحيحه عن أسامة بن زيد رضي الله عنه قال: (بعثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الحرقة من جهينة، قال: فصبَّحنا القوم فهزمناهم، قال: ولحقتُ أنا ورجل من الأنصار رجلًا منهم، قال: فلما غشيناه قال: لا إله إلا الله، قال: فكفَّ عنه الأنصاري، فطعنته برمحي حتى قتلته، قال: فلما قدمنا بلغ ذلك النبيَّ صلى الله عليه وسلم قال لي :يا أسامة، أقتلْتَه بعدما قال لا إله إلا الله؟ قال: قلت: يا رسول الله، إنما كان متعوذًا، قال: فقال :أقتلته بعد ما قال لا إله إلا الله؟ قال: فمازال يُكرِّرها حتى تمنيت أني لم أكن أسلمت قبل ذلك اليوم)، وفي رواية لمسلم :قال أسامة رضي الله عنه: (قلتُ يا رسول الله: إنما قالها خوفاً من السلاح، قال :أفلا شققتَ عن قلبه حتى تعلم أقالها أم لا، فمازال يكررها حتى تمنيت أني أسلمت يومئذ).

ورويا قدم عيينة بن حصن بن حذيفة فنزل على ابن أخيه الحر بن قيس، وكان من النفر الذين يدنيهم عمر، وكان القراء أصحاب مجالس عمر ومشاورته، كهولا كانوا أو شبانا، فقال عيينة لابن أخيه: يا ابن أخي، هل لك وجه عند هذا الأمير؟ فاستأذن لي عليه، قال: سأستأذن لك عليه، قال ابن عباس: فاستأذن الحر لعيينة، فأذن له عمر، فلما دخل عليه قال: هي يا ابن الخطاب! فوالله ما تعطينا الجزل ولا تحكم بيننا بالعدل، فغضب عمر حتى هم أن يوقع به، فقال له الحر: يا أمير المؤمنين، إن الله تعالى قال لنبيه صلى الله

(1) السنن الكبرى للنسائي، كتاب المناقب، جليبيب رضي الله عنه، حديث رقم(8189.)

عليه وسلم: ﴿**خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين**﴾ (الأعراف: 199)، وإن هذا من الجاهلين، والله ما جاوزها عمر حين تلاها عليه، وكان وقافا عند كتاب الله.

خاتمة في حاجة البشرية إلى سيرته.

ما أحوج البشرية لسيرة الرسول صلى الله عليه وسلم تكرع منها ما يروي ظمأها، وتأخذ منها البلسم لأدوائها العضال، وعلى رأس ذلك، تلكم المادية الكالحة التي تقتل إنسانية الإنسان وتشقيه وتشيئه، وتجعل يعيش حياة بلا معنى ولا هدف مما يدفع بالعديد منهم إلى الانتحار.

نعم إن الغرب وصل ذرى العلم المادي، لكنه في الوقت نفسه ارتكس في حمأة التخلف البهيمي، فصادم الفطرة التي فطر الله الناس عليها، وإن في أسس وقواعد البناء السيري للفرد والمجتمع، وبعض هذه الصوى التي ذكرناها منجاة للبشرية، قال برنادشو «لو كان محمد بيننا لحل مشاكل البشرية في ساعة وهو يرتشف فنجان قهوة» ونحن نقول إن سيرته حية ومصدر لحل كل معضلات العصر.

لكننا نحس بالتقصير في عرض السيرة النبوية بلغة العصر، وبيان ما تكتنزه من حلول لمشاكل الحضارة المعاصرة، وإن الحاجة ماسة لذلك، والسيرة كانت دائما مصدرا لعلاج أدواء كل زمن، لذلك تعددت مناهج وأغراض كتابة السيرة بحسب متطلبات كل عصر؛ فألف القاضي عياض في زمن كثر فيه الزنادقة كتاب الشفا، وألف عبد الحي الكتاني كتاب التراتيب الإدارية في زمن انبهر فيه القوم بالنظم الغربية، وألف عدد من الدعاة كتبا في فقه السيرة ليرشدوا الدعوة المعاصرة..

وبقي الأمر رغم ذلك محتاجا لتجديد في عرض سيرة الحبيب صلى الله عليه وسلم لكل الأعمار والأقطار ومعالجة كل المخاطر التي تحتوش بالبشرية وتحدق بها من كل جانب.

فالله نسأل التوفيق والعون والسداد للقيام بما يلزم تجاه سيرة حبيبنا، وأن يتجاوز عنا التقصير في حقها، آمين.

لائحة المصادر والمراجع:

- القرآن الكريم رواية ورش.
- أسباب نزول القرآن: لأبي الحسن علي بن أحمد بن محمد بن علي الواحدي النيسابوري، الشافعي (ت ٤٦٨هـ)، حققه عصام بن عبد المحسن الحميدان، الناشر: دار الإصلاح – الدمام، الطبعة: الثانية، ١٤١٢ هـ - ١٩٩٢م.
- التحرير والتنوير؛ تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد، لمحمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور التونسي (المتوفى: ١٣٩٣هـ)الدار التونسية للنشر – تونسسنة النشر: ١٩٨٤هـ.
- التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد؛ لأبي عمر يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر بن عاصم النمري القرطبي (ت ٤٦٣هـ) حققه مصطفى بن أحمد العلوي ، محمد عبد الكبير البكري الناشر: وزارة عموم الأوقاف والشؤون الإسلامية – المغربعام النشر: ١٣٨٧هـ.
- حياة الصحابة لمحمد يوسف بن محمد إلياس بن محمد إسماعيل الكاندهلوي (ت ١٣٨٤هـ)حققه، وضبط نصه، وعلق عليه: الدكتور بشار عوّاد : مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت – لبنان الطبعة: الأولى، ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م.
- الروض الأنف في شرح السيرة النبوية لابن هشام؛ لأبي القاسم عبد الرحمن بن عبد الله بن أحمد السهيلي(ت٥٨١هـ) حققه عمر عبد السلام السلامي الناشر: دار إحياء التراث العربي، بيروت الطبعة: الطبعة الأولى، ١٤٢١هـ/ ٢٠٠٠م.
- سنن ابن ماجه لأبي عبد الله محمد بن يزيد القزويني،(ت ٢٧٣ هـ)تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي الناشر: دار إحياء الكتب العربية - فيصل عيسى البابي الحلبي.
- سنن الترمذي لأبي عيسى محمد بن عيسى بن سَوْرة بن موسى بن الضحاك، الترمذي، (ت ٢٧٩هـ) حققه وعلق عليه:أحمد محمد شاكر (جـ1،2)ومحمد فؤاد عبد الباقي (جـ3)وإبراهيم عطوة عوض المدرس في الأزهر الشريف (جـ ٤، ٥)الناشر: شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي – مصر الطبعة: الثانية، ١٣٩٥ هـ - ١٩٧٥م.
- السنن الكبرى لأبي عبد الرحمن أحمد بن شعيب النسائي (ت ٣٠٣ هـ)حققه وخرج أحاديثه: حسن عبد المنعم شلبيب مساعدة مكتب تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة(أشرف عليه: شعيب الأرناؤوط قدم له: عبد الله بن عبد المحسن التركي الناشر: مؤسسة الرسالة – بيروت الطبعة: الأولى، ١٤٢١ هـ - ٢٠٠١م.

- السيرة النبوية الصحيحة محاولة لتطبيق قواعد المحدثين في نقد روايات السيرة النبوية للدكتور أكرم ضياء العمري، الناشر: مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة الطبعة: السادسة، ١٤١٥ هـ - ١٩٩٤م.
- السيرة النبوية لابن هشام لعبد الملك بن هشام بن أيوب الحميري المعافري، أبو محمد، جمال الدين (ت ٢١٣هـ) حققه مصطفى السقا وإبراهيم الأبياري وعبد الحفيظ الشلبي الناشر: شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر الطبعة: الثانية، ١٣٧٥هـ - ١٩٥٥م.
- شعب الإيمان لأبي بكر أحمد بن الحسين البيهقي (٣٨٤ - ٤٥٨ هـ) حققه أبو هاجر محمد السعيد بن بسيوني زغلول الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان الطبعة: الأولى، ١٤٢١ هـ - ٢٠٠٠م.
- الشفا بتعريف حقوق المصطفى - مذيلا بالحاشية المسماة مزيل الخفاء عن ألفاظ الشفاء لأبي الفضل القاضي عياض بن موسى اليحصبي (ت ٥٤٤هـ) الحاشية: أحمد بن محمد بن محمد الشمنى (ت ٨٧٣هـ)الناشر: دار الفكر الطباعة والنشر والتوزيع عام النشر: ١٤٠٩ هـ - ١٩٨٨م.
- صحيح البخاري لأبي عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري الجعفي حققه د. مصطفى ديب البغا الناشر: (دار ابن كثير، دار اليمامة) – دمشق الطبعة: الخامسة، 1414 هـ - 1993م.
- عمدة القاري شرح صحيح البخاري لأبي محمد بدر الدين محمود بن أحمد العينى (ت ٨٥٥ هـ)عنيت بنشره وتصحيحه والتعليق عليه: شركة من العلماء بمساعدة إدارة الطباعة المنيرية، لصاحبها ومديرها محمد منير عبده أغا الدمشقي وصوَّرتها دور أخرى: مثل (دار إحياء التراث العربي، ودار الفكر) – بيروت.
- المسند المصنف المعلل: لبشار عواد معروف، السيد أبو المعاطي النوري، محمد مهدي المسلمي، أحمد عبد الرزاق عيد، أيمن إبراهيم الزامل، محمود محمد خليل، الناشر: دار الغرب الإسلامي الطبعة: الأولى، ١٤٣٤ هـ - ٢٠١٣م.
- مفهوم العالمية من الكتاب إلى الربانية، ضمن سلسلة من القرآن إلى العمران (3) للدكتور فريد الأنصاري، دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة القاهرة، الطبعة الأولى، 1430هـ/2009م.
- الموافقات لأبي إسحاق إبراهيم بن موسى بن محمد اللخمي الشاطبي (ت ٧٩٠ هـ) حققه أبو عبيدة مشهور بن حسن آل سلمان تقديم: بكر بن عبد الله أبو زيد الناشر: دار ابن عفان الطبعة: الأولى، ١٤١٧ هـ - ١٩٩٧م.

السيرة النبوية: نظرات في المفهوم والمنهج

الدكتورة سومية حكيم
باحثة في العلوم الشرعية
والتوجيه التربوي

تقديم:

إن خير ما يدارسه المسلمون، ولا سيما الناشئون والمتعلمون، ويعنى به الباحثون والكاتبون دراسة السيرة المحمدية؛ إذ هي خير معلم ومثقف، ومهذب ومؤدب، واصل مدرسة تخرج فيها الرعيل الأول من المسلمين والمسلمات، الذين قلما تجود الدنيا بأمثالهم.

ففيها ما ينشده المسلم، وطالب الكمال من دين، ودنيا، وإيمان واعتقاد، وعلم، وعمل، وآداب وأخلاق، وسياسة وكياسة، وإمامة وقيادة، وعدل ورحمة، وبطولة وكفاح، وجهاد واستشهاد، في سبيل العقيدة والشريعة، والمثل الإنسانية الرفيعة، والقيم الخلقية الفاضلة، كما أشار الى ذلك أبو شهبة.[1] وهو يؤكد تتابع الكتابات في السيرة بشكل منقطع النظير.

يقول رحمه الله-:" مهما يكن من شيء.. فلم تعن أمة من الأمم في القديم والحديث بآثار نبيها وحياته، وكل ما يتصل به من قرب أو بعد، مثل ما عنيت الأمة الإسلامية في تاريخها الطويل، هذه العناية التي كان من آثارها هذه الثروة الطائلة من الكتب المؤلفة في مولده، وسيرته، وحياته، وشمائله، وفضائله، وخصوصياته، ومعجزات، وأخلاقه، وآدابه، وأزواجه، وأولاده، وأجداده، وجداته، ونسبه... إلى أن قال: وإن ما يتعلق بالسيرة النبوية وسير آل بيت النبي ليكون مكتبة حافلة قيمة تعدو الألوف عدا".[2]

وهو ما يضع دارس السيرة كما يؤكد رحمه الله في حيرة شديدة، في أي الكتب يقرأ؟ وبأي كتاب يبدأ؟ وكيف تكون الأولويات في دراسة السيرة؟

من هذا المنطلق جاءت فكرة هذه الورقة التي وسمتها ب: "**السيرة النبوية نظرات في المفهوم والمنهج**"

ولقد كتبت في السيرة النبوية كتابات كثيرة، ولكن تلك الكتابات لم تكن على نحو واحد من جهة اختلاف مناهج أصحابها، وأهدافهم من كتابة السيرة، فمناهج الباحثين في السيرة النبوية كثيرة ومختلفة: لكن عملنا اليوم يتجه نحو بيان المنهج الصحيح في كتابة السيرة النبوية وقراءتها لذلك جاءت هذه الورقة في ثلاث محاور رئيسة: خصصت المحور الأول: لمفهوم السيرة واهمية ضبطها، والمحور الثاني: لبيان المنهج السليم في قراءة السيرة، وأفردت المحور الثالث: بذكر طرق التأسي وسبل التنزيل، ثم ختمت بخاتمة ضمنتها اهم النتائج والتوصيات.

(1) السيرة النبوية على ضوء القرآن والسنة محمد بن محمد بن سويلم أبو شُهبة2/ 7

(2) المرجع نفسه.

المحور الأول: مفهوم السيرة واهمية ضبطها.

المبحث الأول: مفهوم السيرة في اللغة والاصطلاح

المطلب الأول: مفهوم السيرة في اللغة

عند تعريف كلمة السيرة (بكسر السين وفتح الراء) لا بد من الرجوع إلى كتب اللغة ومعاجمها للوقوف على مدلول هذا اللفظ عند اللغويين، وذلك لكي يتضح ما يتضمنه هذا المصطلح الذي إذا أطلق ذهب المعنى تلقائيا إلى سيرة المصطفى صلى الله عليه وسلم.

من هنا وجب التعريف بهذا المصطلح لغويا حتى نتمكن من تعريفه بعد ذلك عند عموم المؤرخين، وعند أهل الاختصاص ممن يذهب إلى أبعد من التعريف الاصطلاحي، ليضمنه أمورا حسية ومادية، وظاهرة وباطنة عن شخص الرسول صلى الله عليه وسلم، وذلك ليشمل التعريف كل شيء يتعلق بالرسول صلى الله عليه وسلم منذ ولادته حتى وفاته، في شؤون الحياة كلها؛ العقدية، والفكرية، والاجتماعية، والأخلاقية، والإنسانية.

بهذا المفهوم الواسع، لا بد أن يوفر التعريف اللغوي ما يوضح هذه الحقيقة عن مصطلح السيرة النبوية، وكيف تطور ليعطي هذا المدلول الواسع الشامل عن رسول الله صلى الله عليه وسلم.

يقول أهل اللغة: "{السير: الذهاب) نهارا وليلا، وأما السري فلا يكون إلا ليلا، (} كالمسير)، يقال: {سار القوم} يسيرون {سيرا} ومسيرا، إذا امتد بهم السير في جهة توجهوا لها،"[1]

و"سار سيرا، وتسيارا، ومسارا، وسار السنة أو السيرة سلكها واتبعها، والسيرة وجمعها سير تطلق على السنة والطريقة والهيئة والمذهب، ووصف السلوك، والحالة التي يكون عليها الإنسان". [2]

و"(السيرة) السنة والطريقة والحالة التي يكون عليها الانسان وغيره. والسيرة النبوية وكتب السير مأخوذة من السيرة بمعنى الطريقة وأدخل فيها الغزوات وغير ذلك ويقال قرأت سيرة فلان تاريخ حياته (ج) سير". [3]

المطلب الثاني: مفهوم السيرة في اصطلاح المحدثين

وعليه فإن السيرة النبوية يكون المقصود بها كيف كانت طريقة النبي صلى الله عليه وسلم مع الناس طوال حياته من مولده إلى وفاته، ومن ثم يمكن تعريف السيرة النبوية اصطلاحا بأنها ذكر أحداث حياة النبي صلى الله عليه وسلم من مولده إلى وفاته، وما يتعلق بذلك من أشخاص ووقائع مع ترتيبها ترتيبا زمنيا.

(1) تاج العروس من جواهر القاموس محمّد مرتضى الحسيني الزبيدي 115/12

(2) معجم مقاييس اللغة أحمد بن فارس بن زكرياء القزويني الرازي، أبو الحسين 120/3 و: الصحاح في اللغة والعلوم (تجديد صحاح العلامة الجوهري (و) المصطلحات العلمية والفنية للمجامع والجامعات العربية) إعداد وتصنيف: نديم مرعشلي - أسامة مرعشلي 2497.

(3) المعجم الوسيط المؤلف: مجمع اللغة العربية بالقاهرة 467/1

وهي في اصطلاح المحدثين: ما أثر عن النبي- صلى الله عليه وسلم - من قول، أو فعل أو تقرير أو صفة خلقية أو خلقية أو سيرة، سواء كان قبل البعثة أو بعدها، وهي بهذا ترادف الحديث عند بعضهم.[1]

وقد تطلق السنة عندهم على ما دل عليه دليل شرعي، سواء كان ذلك في الكتاب العزيز، أو عن النبي - صلى الله عليه وسلم -، أو اجتهد فيه الصحابة، كجمع المصحف وحمل الناس على القراءة بحرف واحد، وتدوين الدواوين، ويقابل ذلك «البدعة».[2] فعلماء الحديث:" إنما بحثوا عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - الإمام الهادي الذي أخبر الله عنه أنه أسوة لنا وقدوة، فنقلوا كل ما يتصل به من سيرة وخلق وشمائل وأخبار وأقوال وأفعال، سواء أثبت ذلك حكما شرعيا أم لا".[3]

المطلب الثالث: مفهوم السيرة في اصطلاح الأصوليين والفقهاء

وفي اصطلاح الأصوليين: ما نقل عن النبي - صلى الله عليه وسلم - من قول أو فعل أو تقرير.[4]

وفي اصطلاح الفقهاء: ما ثبت عن النبي- صلى الله عليه وسلم - من غير افتراض ولا وجوب، وتقابل الواجب وغيره من الأحكام الخمسة، وقد تطلق عندهم على ما يقابل البدعة، ومنه قولهم: «طلاق السنة كذا، وطلاق البدعة كذا» [5]

ومرد هذا الاختلاف في الاصطلاح إلى اختلافهم في الأغراض التي يعني بها كل فئة من أهل العلم.

وعلماء الأصول: "إنما بحثوا عن رسول الله المشرع الذي يضع القواعد للمجتهدين من بعده: ويبين للناس دستور الحياة، فعنوا بأقواله وأفعاله وتقريراته التي تثبت الأحكام وتقررها". [6]

وعلماء الفقه: "إنما بحثوا عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - الذي لا تخرج أفعاله عن الدلالة على حكم شرعي، وهم يبحثون عن حكم الشرع على أفعال العباد وجوبا، أو حرمة، أو إباحة أو غير ذلك".[7]

ونحن هنا نريد بالسنة المدلول الواسع الشامل عن رسول الله صلى الله عليه وسلم.ونتساءل ما الأهمية من ضبط السنة بالضوابط العلمية؟ وكيف يمكن ضبط هذه السنة الواسعة الشاسعة من الغلو والشذوذ والتنطع والتسيب؟

(1) السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي لمصطفى بن حسني 521/ 56

(2) المرجع السابق. ص 56

(3) المرجع السابق. ص 66

(4) المرجع السابق ص 66

(5) المرجع السابق ص 66

(6) المرجع السابق.67 ص 67)

(7) المرجع السابق ص.67)

المبحث الثاني: أهمية ضبط دراسة السيرة

يكفي دلالة على القناعة بأهمية دراسة السيرة تلك الكتابات المتكاثرة التي تحاول الإفادة من السيرة بأكثر من صورة، ولما لمنهج الكاتب من تأثير في كتاباته فإن من المهم السعي إلى تحديد أطر منهجية ضابطة للدراسة والكتابة، وهذه محاولة لرسم بعض المعالم والضوابط أرجو بها النفع.

المطلب الأول: فهم حقيقة الإسلام ومنهجه المتكامل

لا يخفى على كل دي لب ما يكتسبه هذا القيد من مكانة من جهة عجز من يفتقده عن:" قراءة أحداث السيرة قراءة موضوعية تمكنه من سلامة فهم الأحداث، وتقصي أسبابها، ومعرفة دوافعها، وتفسيرها بما يتفق مع روح الإسلام، فمن المهم أن يعنى بالجانب التشريعي الذي يحتكم إليه المجتمع، وتوضح الضوابط الخلقية والقانونية التي تحكم حركة الأفراد والمجتمعات، ولا يمكن الفصل بين الجانب السياسي والعسكري، والجانب الخلقي والتشريعي، خاصة في القرون الأولى من تاريخ الإسلام؛ حيث تتشابك العلاقات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والعسكرية بالعقيدة تشابكاً وثيقاً بحيث يصعب فهم حركة التاريخ في تلك المرحلة دون فهم روح الإسلام ومبادئه"[1].

إزاء هذا الضابط نرى أنفسنا أمام خطرين اثنين: أولهما: افتقاد بعض الباحثين والدارسين إلى المرجعية الشرعية، وثانيهما: قراءة السيرة بأنظمة معرفية أخرى: وفصلها عن نسقها المعرفي وسياقها ومناسباتها... في هذه الورقة يمكن الإشارة الى بعضها على سبيل التمثيل لا الحصر.

المطلب الثاني: تحقق الإسلام بالسيرة النبوية

فالسيرة النبوية الشريفة، شرح عملي عميق في واقع الحياة، وتصوير للقرآن الكريم والإسلام كله، في ميادينها كافة، وإمحاض مخلص وأصيل وتطبيقي وحقيقي وصادق وناطق، أكيد وسديد وجديد؛ لمضامين هذا الشرع الحنيف، بقرآنه الكريم- كما أنزله الله سبحانه وتعالى وأراده- وبسنته الصحيحة المطهرة.

وكان من لطف الله تعالى أن الذي أراده الله من هذا الدين، أسلوبا ووضوحا وثبوتا وشمولا وسعة وامتدادا، كله قد تم وقام في الحياة عمليا وقويا ومهيبا في عهد النبي صلى الله عليه وسلم، كيلا يفتقد أي أحد القدوة والمثل.

المطلب الثالث: الاهتمام بتحرير المنهج النبوي في سائر المجالات

فمطلوب اليوم أكثر من أي وقت مضى قراءة السيرة ودراستها دراسة استراتيجية في مختلف الحالات الاجتماعية والتربوية والعلمية والإدارية والسياسية والاقتصادية، والحركية، والأمنية، والثقافية.. "ففي

(1)السيرة النبوية الصحيحة: محاولة لتطبيق قواعد المحدثين في نقد روايات السيرة النبوية أكرم ضياء العمري 18/1

السيرة بيان لجميع الحالات أو أصولها؛ خلافا لصنيع بعض كتاب السيرة حين يصورون حياة النبي صلى الله عليه وسلم على أنها صراع وحروب وغزوات وسرايا، ويغفلون عن الجوانب الأخرى".[1]

وما دامت هي كذلك، فلا بد أنها: " تحتوي على كل ما تحتاجه البشرية لسعادة الدارين، في كل زمان ومكان. وتجد- بالأخذ بها- برد الظلال الندية، تحميها من حر الهجير، وتلف الشرود، وتيه الانحراف. وتحسب الأنس إلى جوارها من موحشات الحياة، وتفرح بإنسانيتها، وتنجو بها من التشتت والتفتت، وتسعد بورودها، وتنعم بحضارتها الفريدة، ملتصقة بها، محافظة عليها، وتلجأ إليها دوما، وتحيا بها دون تراخ أو انفكاك، وفيها تجد الحل الجميل الكريم كلما عنّت لها مشكلات، أو واجهتها صعوبات، لا تبحث في ذلك عن غيرها، ولا في إصلاح حالها من خارجها. وكذلك تحيا بها في كل أحوالها لتأخذ في طريق الحضارة الإنسانية الفاضلة الكريمة، ترتقي بها في سلمها الكريم، وآفاقها الرحيبة الوضيئة والروحية المتكاملة القوية".[2]

لكن المطلوب :دقة تحليل الواقع المعاش من خلال متخصصين، لا متحمسين فقط، ثم دراسة السيرة وتحليلها، ثم تحديد مواقع الاقتداء من مسيرة السيرة، أو اكتشاف المرحلة من السيرة التي تمثل حالة الاقتداء وكيفيته من خلال ظروف الحال نفسه.

المحور الثاني: المنهج السليم في قراءة السيرة

المبحث الأول: معرفة حدود العقل في قبول النصوص وردها وعدم اهمال الدليل المضاد.

المطلب الأول: معرفة حدود العقل في نقد المتون.

يرى العديد من الدارسين وخاصة من المستشرقين أن علماء المسلمين أهملوا نقد المتون، وأن ذلك لغياب عقليتهم النقدية. وهذا مردود، كما يؤكد ابن تيمية رحمه الله "الأحاديث التي ينقلها كثير من الجهال لا ضابط لها، لكن منها ما يعرف كذبه بالعقل، ومنها ما يعرف كذبه بالعادة، ومنها ما يعرف كذبه بأنه خلاف ما علم بالنقل الصحيح، ومنها ما يعرف كذبه بطرق أخرى".[3]

كما يحسب في عداد تقويم العقلية النقدية لدى المسلمين: "خدمتهم لنصوص أحاديث الأحكام خدمة بالغة، وجهودهم في كتب أصول الفقه التي تنبئ عن عقلية فذة، وإذا علمنا أن للمؤرخين القدامى كتبا في فنون أخرى لم يجز لنا أن نتهمهم بإهمال المتون، كما يجب مراعاة عنصر الزمن، فلا تقوم جهودهم بمقاييس أنجزها التقدم العلمي اليوم؛ لئلا يغمطوا حقهم، على أن علم مصطلح الحديث قد اشتمل على

(1) من المحاولات الجيدة في هذا الصدد: كتاب منهج النبي صلى الله عليه وسلم في حماية الدعوة، للطيب برغوث، وكتاب في السيرة النبوية قراءة لجوانب الحماية والحذر، د إبراهيم علي.

(2) السيرة النبوية منهجية دراستها واستعراض أحداثها عبد الرحمن على الحجى 456/ 62

(3) منهاج السنة النبوية في نقض كلام الشيعة القدرية ابن تيمية الحراني 105/8. ولابن تيمية قاعدة للتمييز بين الصدق والكذب في المنقولات في غاية الأهمية تجدها في منهاج السنة، 34/7- 43، 7/ 419 - 479.

مباحث تشكل الجانب النظري لنقد المتون، ولكن القصور حصل في تطبيق ذلك على الرواية التاريخية، فلم تحظ بما حظيت به الأحاديث النبوية من العناية".[1]

ولقد اوضح الدكتور أكرم ضياء العمري أن الجانب النظري لنقد المتن كان "متبلورا إلى حد كبير منذ القرون الأولى في كتب مصطلح الحديث كما في أقسام المدرج والمعلل والمضطرب والشاذ والمنكر والموضوع وغيرها مما يدور الكلام فيها على نقد الأسانيد والمتون معا، ولكن القصور كان في تطبيق ذلك عمليا عند التعامل مع الرواية التأريخية التي لم تحظ بنفس القدر من النقد الذي حظيت به الأحاديث النبوية".[2] ولهذا وجب الانتباه لذلك من لدن المهتمين بالكتابة في الدرس السيري.

المطلب الثاني: عرض الأحاديث على كليات الدين وقواعده.

لقد انزلق المطالبون بنقد المتون؛ حيث أجروا أحكام العقل في المتون الثابتة، وجعلوا ذلك أساسا للرد والقبول، وذلك أمر تتفاوت فيه العقول كما يبين محمد الغزالي، وإنما يجيء الإشكال كما وضح من: " جهة قصور العقل عن إدراك الخطاب للتوفيق بينه وبين النصوص الأخرى، وربما يثبت من لم يلتزم منهج المحدثين حديثا واهيا لصحة معناه، وقد يرد رواية الشيخين لظنه تعارضها مع مبادئ الإسلام وقواعده، وهذا تحكيم ضعيف للعقل".[3]

وان" أغلب العلماء جرى على مثلها في مواجهة المرويات الضعيفة والصحيحة على سواء. وقرروا أن الحديث الضعيف يعمل به ما دام ملتئما مع الأصول العامة، والقواعد الجامعة، وهذه الأصول والقواعد مستفادة- بداهة- من الكتاب والسنة، وعلى ضوء هذا النظر المنصف حكيت استشارة رسول الله عليه الصلاة والسلام للحباب في موقعة بدر- وإن وهن المحدثون سندها- لأنها تدور في نطاق الفضائل التي أمر بها الله ورسوله، وليس في سوقها ما يحذر قط".[4]وهذا ملمح لطيف فيما يخص منهج التعامل مع الأحاديث الضعيفة، واغفالها يمكن ان يترك شبه فراغ عند قراءة بعض احداث السيرة النبوية الشريفة. ولهذا وجب الاهتمام بهذا الامر وفق الضوابط الشرعية.

ومن الأخطاء المنهجية التي يمكن ان يقع فيها دارس السيرة النبوية هو " نفي المعجزات الثابتة بالنقل الصحيح، وهو في حقيقته انصياع للفكر المادي والفلسفات الوضعية، مع أن المسلم لا بد له من الاعتزاز الذي يحقق له الاستقلال التام في النظر والبحث العلمي".[5]

(1) السيرة النبوية الصحيحة محاولة لتطبيق قواعد المحدثين في نقد روايات السيرة النبوية أكرم ضياء العمري ص 17.

(2) المرجع السابق ص 17

(3) ولقد رد الغزالي في (فقه السيرة رواية البخاري في أن النبي صلى الله عليه وسلم غزا بني المصطلق وهم غارون، بناءعلى أنه لا تجوز مباغته العدو إلا بعد إنذاره، مع أنه يجوز ذلك مع من بلغتهم الدعوة انظر: فقه السيرة المؤلف: محمد الغزالي السقا. عدد الصفحات: 480- 203.

(4) السيرة النبوية الصحيحة محاولة لتطبيق قواعد المحدثين في نقد روايات السيرة النبوية أكرم ضياء العمري المرجع السابق 17/1

(5) المرجع السابق.

المطلب الثالث: عدم اهمال الأدلة المضادة.

من أسوأ العيوب المنهجية، وأشدها خطورة على نتائج أي بحث علمي، هي أن يتجاهل الباحث الأدلة المضادة - يعني المخالفة - لرأيه سواء أكان ذلك بسبب إهماله، أم تحيزه أم لأي سبب آخر، يقول الدكتور خالد بن منصور بن عبد الله الدريس: "من أهم العوائق التي تحول بين الباحث، والوصول إلى الحقيقة: تجاهل الأدلة المضادة، وعليه فإن الدليل المضاد يجب أن يعطى وزن الدليل المؤيد نفسه، حتى لو كان في ذلك تغيير لمنطلقات البحث الأساسية؛ لأن هدف الباحث الأول هو الوصول إلى الحقيقة".[1]

ولا يخفى خطورة الأدلة المضادة على نتائج أي بحث علمي، ولذلك بمجرد "الاعتماد على سكوت المصادر في نفي صحة المعلومات التي تثبتها مصادر أخرى، لا يعد عملا مقبولا علميا عند أساتذة المنهجية".[2]

وهذا ديدن كل من أراد النيل من سيرة المصطفى عليه السلام وهذا منهجهم المتبع وهو تجاهل إن لم يكن "حجب" الأدلة المضادة التي تخالف أحكامه التعسفية الجائرة والظالمة.

المبحث الثاني: فهم السيرة من خلال القران وتفادي الانتقائية.

المطلب الأول: فهم السيرة من خلال القران.

ان بحث السيرة في القرآن مما يضيف جديدا للبحث العلمي في هذا الباب من ناحيتين:

الأولى: "المقارنة بين ما نزل من القرآن ووقع في السيرة النبوية من القصص والعبر المأخوذة منه والحكم والفهم عن الله والتحذير وغيره مما جاء به القرآن الكريم ليفيد المسلمين مطلوب الهداية من سيرته - صلى الله عليه وسلم -، وليميز للمؤمنين المتقين مراد الله وحكمته وموعظته وشرعه إلى آخر ما أشرنا إلى شيء منه مع المقارنة بقصص الانبياء السابقين وشيء من سيرتهم ليحذر المشركين من سوء عاقبة ما هم فيه، ويبشر المؤمنين بنصر الله إلى كثير مما دق أو جل مما جاء في القرآن الكريم".[3]

الثانية: "المقارنة بين ما جاء في القرآن عن الرسول - صلى الله عليه وسلم- وعن الأنبياء عليهم السلام مما يوضح أم مشكاة النبوة واحدة، ويبرهن على ما ادخر الله من فضل لهذه الأمة، وعلى أن النبي - صلى الله عليه وسلم- سيد ولد آدم ولا فخر".[4] اذن: أي دراسة للسيرة النبوية لا بد وان تكون في ضوء القران والسنة النبوية وذلك بذكر الآيات القرآنية المتعلقة بحوادث السيرة ووقائعها، وشرح ما غمض منها، وإزالة ما عسى أن يكون بين ظواهر هذه الآيات من توهم الاختلاف أو التعارض، وتنزيل هذه الآيات على حسب الوقائع والحوادث.

(1) العيوب المنهجية في كتابات المستشرق شاخت المتعلقة بالسنة النبوية خالد بن منصور. 47/81

(2) المرجع السابق(المرجع نفسه) 52/81

(3) السيرة النبوية بين الآثار المروية والآيات القرآنية محمد بن مصطفى بن عبد السلام الدبيسي 3/624

(4) المرجع السابق.3

ومن نافلة القول ان نقول: إن المرجع الأول في دراسة السيرة النبوية هو القران الكريم، "لأنه الكتاب المتواتر الذي يفيد القطع واليقين، ولا يتطرق إليه الشك والارتياب، فهو أوثق المصادر، وأولاها بالقبول".[1]

المطلب الثاني: تفادي الانتقائية في اختيار المصادر.

من أخطر العيوب المنهجية في البحث العلمي، أن يتوصل الباحث إلى نتائج محددة عامة تكون مبنية على معلومات مستقاة من مصادر غير متخصصة في موضوع بحثه. وهذا ما يقع لبعض الباحثين في دراستهم للسيرة النبوية حيث يعتمدون في ذلك على:" مصادر فقهية، وليست حديثيه، فلا تجد لهم اعتماد على كتب في علم مصطلح الحديث، أو الجرح والتعديل، أو العلل، أو التخريج، ومن المعلوم ان من يتجاهل هذه المصادر الأصلية في علم الحديث، كيف يمكن لنا بمقاييس المنهج العلمي أن نثق بنتائجه".[2]

وكم من عمل من أعمال التاريخ عولج وفقا لقواعد أدق المناهج قد أفسده، بل قضى عليه قضاء مبرما، أمر مادي بسيط هو أن المؤلف لم يقف على وثائق كان من شأنها أن توضح تلك التي كانت في متناول يده - واقتصر عليها-، وأن تكملها أو تنقضها كما يؤكد الدكتور: خالد بن منصور بن عبد الله الدريس في كتابه العيوب المنهجية ..."[3] "ولهذا كان الاعتماد على المصادر الثانوية او غير المتخصصة مما يعيب منهج البحث ويضر بالنتائج.قد حرص كتاب السيرة المعروفين بدقة المنهج وصوابه بذكر النقول بنصها والا يكون هناك نص أصح منه، أو أوثق أو أوفى مروي في غير السيرة فإنهم يؤثرونه عليه، وذلك لما يمتاز به التأليف في العصور الأولى من قوة الأسلوب، وفحولة المعاني، وجزالة الألفاظ، وإشراق الديباجة، والتزام أساليب العرب، ومذاهبهم في البيان".[4]

إذن: لابد في دراستنا لأي موضوع في السيرة النبوية من دراستنا الأحاديث المتصلة بالموضوعات مع الاقتصار على الصالح منها للاحتجاج من حديث صحيح، أو حسن، أو مقبول، وعدم الاعتماد على الأحاديث الموضوعة أو الإسرائيليات المكذوبة، أو الروايات الشديدة الضعف، إذ في الأحاديث الثابتة ما يغني عنها.

المطلب الثالث: تمحيص الصحيح من الأخبار فيما يتعلق بالعقيدة والشريعة

الناس في اشتراط تمييز الصحيح من الضعيف في روايات السيرة على قولين مشهورين:

الأول: "من لم يشترط التمحيص وأجاز إيراد كل مرويات السيرة، واحتج بأن كتبة السيرة لم يعتمدوه ولم يحرصوا عليه، واستدلوا بما اشتهر عن الإمام أحمد رحمه الله أنه قال:"ثلاثة كتب ليس لها أصول: المغازي، والملاحم، والتفسير"[5] ، وهذا الكلام محمول على وجه وهو أن المراد به كتب مخصوصة في هذه

(1) فقه السيرة محمد السباعي المرجع السابق. 13/1

(2) العيوب المنهجية في كتابات المستشرق شاخت المتعلقة بالسنة.33/81

(3)- العيوب المنهجية في كتابات المستشرق،شاخت المتعلقة بالسنة النبوية المرجع السابق.

(4)- فقه السيرة السباعي في المرجع السابق ص26

(5) أخرجه الخطيب البغدادي في الجامع، الجزء الثامن 162/2

المعاني الثلاثة غير معتمد عليها ولا موثوق بصحتها لسوء أحوال مصنفيها وعدم عدالة ناقليها وزيادات القصاص فيها، فأما كتب الملاحم فجميعها بهذه الصفة وليس يصح في ذكر الملاحم المرتقبة والفتن المنتظرة غير أحاديث يسيرة اتصلت أسانيدها إلى الرسول صلى الله عليه وسلم من وجوه مرضية وطرق واضحة جلية".[1]

وأن ثبوت هذه المقولة عن الإمام أحمد موضع نظر ومن ذا الذي يقول :إنه لا يثبت شيء في مغازي المسلمين؟ فأين ما في الصحاح والسنن، وأين ما ذكره الإمام أحمد نفسه في مسنده؟

الثاني وهو المطلوب: اعتماد الروايات الصحيحة وتقديمها، ثم الحسنة، ثم ما يعتضد من الضعيف لبناء الصورة التاريخية لأحداث المجتمع الإسلامي في عصر صدر الإسلام ... وعند التعارض يقدم الأقوى دائما.. أما الروايات الضعيفة التي لا تقوى أو تعتضد فيمكن الإفادة منها في إكمال الفراغ الذي لا تسده الروايات الصحيحة والحسنة على ألا تتعلق بجانب عقدي أو شرعي؛ لأن القاعدة، التشدد فيما يتعلق بالعقيدة أو الشريعة".[2]، أما الروايات التاريخية المتعلقة بالعمران: كتخطيط المدن، وزيادة الأبنية، وشق التبرع.. أو المتعلقة بوصف ميادين القتال وأخبار المجاهدين الدالة على شجاعتهم وتضحيتهم فلا بأس من التساهل فيها كما يقول العمري"[3]، "ولا يخفى أن عصر السيرة النبوية والخلافة الراشدة مليء بالسوابق الفقهية، والخلفاء الراشدون كانوا يجتهدون في تسيير دفة الحياة وفق تعاليم الإسلام؛ فهم موضع اقتداء ومتابعة فيما استنبطوا من أحكام ونظم لأقضية استجدت بعد توسع الدولة الإسلامية على إثر الفتوح.

وهذا هو المنهج المعتبر عند الأئمة المحققين، يشهد به صنيع الذهبي في تاريخ الإسلام، وابن سيد الناس في: عيون الأثر وابن حجر في الفتح، وكذلك ابن القيم وابن كثير، أما ما يؤخذ من الروايات التاريخية فهو ما اتفق عليه الإخباريون".[4]، أما اشتراط الصحة في كل خبر تاريخي والذي مشى عليه بعض المؤلفين في السيرة فاختزلوا كثيراً من أحداثها فإن ذلك يترتب عليه تضييع ثروة علمية كبرى، وإهدار الاستفادة منها في مجالات تربوية وإدارية.. ونحوها؛ حيث تضعف الثقة في كل ما استنبط منها.

يبقى كيف تدون السيرة على ضوء المنهج السابق: هل تذكر كل الأحاديث بنصوصها، أم يجمع بين الروايات في سياق واحد؟ والظاهر: هو الطريق الثاني؛ تحاشيا لتشوش القارئ، وتشتت ذهنه بانقطاع الأحداث، وتكرر بعضها، وعدم وضوح صورة متسلسلة متكاملة للسيرة.

(1)الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت بن أحمد بن مهدي الخطيب البغدادي 162/2.

(2)ولا يفهم من هذا رد أحاديث الآحاد في باب الاعتقاد فهو خلاف منهج أهل السنة، مقدمة في السيرة، د المحمود.

(3) السيرة، للعمري: 40/1، وانظر التزامه هذا المنهج في مقدمته، ص 19.

(4) السيرة، العمري، المصدر السابق: 20/1.

المحور الثالث: السيرة النبوية بين طرق التأسي وسبل التنزيل.

المبحث الأول: طرق التأسي وحسن الاتباع.

المطلب الأول: صدق العاطفة وتوازنها.

من أسس الكتابة في السيرة ودراستها توفر المحبة الصادقة لصاحبها صلى الله عليه وسلم، والعاطفة الحية التي تشعر بمدى الارتباط الحقيقي قلبا وقالبا، والتفاعل الحقيقي مع أحداث سيرته، ولقد عبر الشيخ محمد الغزالي عن هذه العاطفة الجياشة وهو يكتب مقدمة كتابه حيث قال:" إنني أكتب في السيرة كما يكتب جندي عن قائده، أو تابع عن سيده، أو تلميذ عن أستاذه، ولست كما قلت مؤرخا محايدا مبتوت الصلة بمن يكتب عنه. [1] ليؤكد بمقاله ان دراسة السيرة عند المسلمين انما هي تعبدا لله وتقربا إليه، فهي سبيل لتنمية ذلك الحب، وسقي تلك العاطفة، لأنسيرته عليه أفضل الصلاة وأزكى السلام ليست مجرد سيرة تحكى كعبقري من العباقرة أو رجل صالح أو ذكي كما يدعي الاستشراق. او أنها سيرة رجل او ملك او شخصية غيرت مجرى التاريخ فقط، وإنما نقرؤها على أساس إنها سيرة نبي مبعوث من عند الله تعالى.

ولهذا كلما كانت القراءة للسيرة النبوية قراءة صادقة للأحداث والوقائع الا وتركت اثارها في النفوس دون افتعال او احتيال. ومن تم كانت طرق قراءة السيرة لها دور في بيان هذا المغزى العميق. وقد كان منهج سلف الامة في قراءة السيرة فريقان كما أكد محمد الغمراوي:

" -قوم قصروا في حق النبي صلى الله عليه وسلم وما يجب له من الإجلال والتوقير والتعظيم، فدرسوا سيرته كما يدرسون سائر الشخصيات الأخرى، فنظروا لجوانب العظمة البشرية والقيادة والعبقرية والبطولة والملك والإصلاح الاجتماعي، مغفلين الجانب الأعلى في حياته، وهو تشرفه بوحي الله عز وجل وختم النبوة والرسالة. ولهؤلاء يحسن سياق خبر أبي سفيان يوم فتح مكة؛ حيث قال للعباس لما رأى كتائب الصحابة رضي الله عنه: "والله لقد أصبح ملك ابن أخيك اليوم لعظيما، فقال العباس: ويحك يا أبا سفيان، إنها النبوة، قال :فنعم إذاً".(2)

وآخرون بالغوا في التعظيم وغلوا في منزلة الرسول صلى الله عليه وسلم، فلم يرق لهم وصفه بالبشرية، بل ربما خطر لبعضهم أنه ضرب من الجفاء! مع أن كونه صلى الله عليه وسلم بشرا عبدا لله عز وجل من مسلمات العقيدة، وخلافه ضرب من الضلال، فالحق وسط بين الطرفين".(3)

ولهذا كلما كانت منهج دراسة السيرة سليما كلما ترك ذلك أثرا كبيرا في العقيدة والعبادة والسلوك.

(1)-فقه السيرة، السقا ص 6

(2) أخرجه البخاري، كتاب الأنبياء، كتب السنة أبو الفضل أحمد بن علي بن محمد بن أحمد بن حجر العسقلاني(ت ٨٥٢هـ)المطالب العالية بزوائد المسانيد الثمانية. ص 17

(3) محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم، مدخل لدراسة السيرة النبوية، محمد الغمراوي، ص 15.

المطلب الثاني: حسن التأسي

إن سيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم:" تحكي سيرة إنسان أكرمه الله بالرسالة، فلم تخرجه عن إنسانيته، ولم تلحق حياته بالأساطير، ولم تضف عليه الألوهية قليلا ولا كثيرا، وإذا قارنا هذا بما يرويه المسيحيون عن سيرة عيسى عليه السلام، وما يرويه البوذيون عن بوذا، والوثنيون عن آلهتهم المعبودة، اتضح لنا الفرق جليا بين سيرته عليه السلام وسيرة هؤلاء، ولذلك أثر بعيد المدى في السلوك الإنساني والاجتماعي لاتباعهم، فادعاء الألوهية لعيسى عليه السلام ولبوذا جعلهما أبعد منالا من أن يكونا قدوة نموذجية للإنسان في حياته الشخصية والاجتماعية، بينما ظل وسيظل محمد صلى الله عليه وسلم المثل النموذجي الإنساني الكامل لكل من أراد أن يعيش سعيدا كريما في نفسه وأسرته وبيئته، ومن هنا يقول الله تعالى في كتابه الكريم: ﴿**لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ**﴾ (الأحزاب:21) (1)

إن قنوات السيرة وأشعتها مبثوثة في التاريخ الإسلامي بطوله، وحتى الوقت الحاضر- وإن تفاوتت- وحتى يرث الله الأرض ومن عليها. مبثوثة في واقع الحياة، ومدونة محفوظة موثقة في مصادرها الأمينة. وطالما كانت السيرة مثار اهتمام وانتباه زائد مركز، وكلما هبطت بالأمة الأثقال، رفعت عن المسلمين الآثام.

وكم من مطلع من غير المسلمين على السيرة، قادته أحداثها وأحوالها وآفاقها، إلى الإيمان بصاحبها صلى الله عليه وسلم نبيا ورسولا. فانتقل إلى الإسلام، وأقبل عليه مؤمنا به، وقد رضي بالله تعالى ربا، وبالإسلام دينا، وبمحمد صلى الله عليه وسلم نبيا ورسولا".(2)

والسيرة ميدان للتربية على الإسلام، من خلال التاريخ؛ لأن الإعجاب بالشيء الكريم، والموقف المحمود، والمشهد المحبوب- فطرة أصيلة متفتحة- يقود للأخذ بذلك الشيء سريعا، خاصة إذا كان متمثلا بإنسان وفي نفس السن المبكر بشكل أكثر. ولا بد كما يؤكد عبد الرحمن على الحجى:" الإعجاب بالسيرة خلال الاطلاع عليها، فنرى الإسلام كما أنزله الله تعالى وأوحى به، متمثلا في إنسان وأعني به: أناسي- وأول ذلك بصاحبها صلى الله عليه وسلم وبالذين رباهم على يديه بهذا الدين العظيم[3]

فهي تحكي لنا : "سيرة محمد الشاب الأمين المستقيم قبل أن يكرمه الله بالرسالة، كما تحكي لنا سيرة رسول الله الداعية إلى الله المتلمس أجدى الوسائل لقبول دعوته، الباذل منتهى طاقته وجهده في إبلاغ رسالته، كما تحكي لنا سيرته كرئيس دولة يضع لدولته أقوم النظم وأصحها، ويحميها بيقظته وإخلاصه وصدقه بما يكفل لها النجاح، كما تحكي لنا سيرة الرسول الزوج والأب في حنو العاطفة، وحسن المعاملة، والتمييز الواضح بين الحقوق والواجبات لكل من الزوج والزوجة والأولاد، كما تحكي لنا سيرة الرسول المربي

(1)السيرة النبوية - دروس وعبر المرجع السابق ص 18.

(2) السيرة النبوية منهجية دراستها واستعراض أحداثها عبد الرحمن على الحجى ص 49

(3) السيرة النبوية منهجية دراستها واستعراض أحداثها المرجع السابق. ص 49.....

المرشد الذي يشرف على تربية أصحابه تربية مثالية ينقل فيها من روحه إلى أرواحهم، ومن نفسه إلى نفوسهم، مما يجعلهم يحاولون الاقتداء به في دقيق الأمور وكبيرها، كما تحكي لنا سيرة الرسول الصديق الذي يقوم بواجبات الصحبة، ويفي بالتزاماتها وآدابها، مما يجعل أصحابه يحبونه كحبهم لأنفسهم وأكثر من حبهم لأهليهم وأقربائهم، وسيرته تحكي لنا سيرة المحارب الشجاع، والقائد المنتصر، والسياسي الناجح، والجار الأمين، والمعاهد الصادق".[1]

وقصارى القول: إن سيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم شاملة لجميع النواحي الإنسانية في المجتمع، مما يجعله القدوة الصالحة والمثل الأعلى الى قيام الساعة.

المبحث الثاني: تحليل الأحداث وتنزيلها على الو اقع

المطلب الأول: تحليل الاحداث

لا يخفى ما قدمه العلماء المتقدمون من مجهودات مضنية في حفظ العلم وروايته، لكن أشغلهم ذلك في بعض الأحيان عن العناية بتحليل الأخبار ودراستها والنظر في أسباب الأحداث وملابساتها... .وفي عصور الضعف لم يأخذ جانب التحليل والدراسة حقه؛

فإذا كان النقد التاريخي يبدو ضعيفا في دراساتنا كما يؤكد العمري، "فإن التحليل للروايات والتعامل معها يبدو أكثر قصورا، بسبب النظرة التجزيئية للقضايا والسطحية في التعامل مع الروايات وعدم وضوح التصور الإسلامي لحركة التاريخ"[2]

"إذ قلما يشير المؤرخ الإسلامي القديم للسنن والنواميس والقوانين الاجتماعية التي تحكم حركة التاريخ رغم أن القرآن الكريم لفت نظر المسلمين إلى ذلك كله بوضوح بل أن أحدا من مؤرخي الإسلام لم يحاول إعادة صياغة النظرة القرآنية للتاريخ وتقديم الوقائع والتطبيقات والشواهد التاريخية عليها بشكل نظريات كلية حتى وقت متأخر عندما كتب ابن خلدون مقدمته، رغم أن المفكرين المسلمين تعاملوا مع الفلسفة والمنطق منذ القرون الأولى وأفادوا منها في بناء علوم اللغة وأصول الفقه بوضوح، وتصرفوا في ذلك بعقليتهم اليقظة التي تنفي ما يناقض المعتقد الإيماني والتصور الإسلامي، ونجحوا في ذلك إلى حد كبير، وكان نجاحهم في تخطي التجربة يرتبط بمدى وضوح العقيدة وصفائها في عقولهم"[3]

"والحق أن المحدثين في باب التحليل والتعليق والموازنة بين المواقف قد أربوا على المتقدمين، وأكسبوا السيرة جدة ورواء، وقد تفاوتوا في ذلك على حسب تفاوتهم في المراتب، وسعة العلم والأفق، والاطلاع على سيرالآخرين".[4]

(1) السيرة النبوية - دروس وعبر المرجع السابق ص 19

(2) السيرة النبوية الصحيحة محاولةِ لتطبيق قواعد المُحدثين في نقد روايات السيرة 15/1

(3) السيرة النبوية الصحيحة محاولةِ لتطبيق قواعد المُحدثين في نقد روايات السيرة المرجع السابق،

(4) السيرة النبوية على ضوء القرآن والسنة، محمد أبو شهبة ص 17/1

إن سيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم شاملة لكل النواحي ولهذا كان لزاما حسن قراءتها في شموليتها دون تجزيئ. وإعادة صياغة نظريات كلية من أصل القران وسيرة المصطفى عليه السلام لتكون منهجا للاقتداء و التأسي ومنطلقا للتطور والانطلاق نحو العطاء.

المطلب الثاني: تنزيلها على الو اقع

السيرة النبوية الشريفة متداخلة مع كل ما ومن صحب وعايش الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم، وواجب المسلمين اليوم كما يؤكد عبد الرحمن:"تقديمها بأسلوب شيق وصادق وجميل وجذاب، للمسلمين وغير المسلمين- بالعربية وغيرها- تقربا إلى الله تعالى، ودعوة لدينه، وتنفيذا لأمره، وإحقاقا لشرعه.[1]

خاصة في زماننا اليوم الذي يشهد تسارعا في الأحداث وتطورا مذهلا في المجال التكنولوجي والإعلامي وغيره من المجالات التي وجب معه المواكبة وتقديم قدوات وكوادر من العلماء والملهمين والمصلحين العالمين بأمور دينهم ودنياهم، دارسين لسيرة رسولهم الكريم صلى الله عليه وسلم من مصادرها الأولية ومراجعها الشرعية، مترسمينها في كل أحوالهم، عقيدة وعبادة، بلا مغالاة ولا مداناة، ليكونوا أناسا ربانيين في كافة أوقاتهم، وقضاياهم، وأمورهم كلها. وأول مصادرها تماما: القرآن الكريم والسنة الصحيحة، وتقديمها لغير المسلمين أنموذجا صالحا للاقتداء والاهتداء بشكل حقيقي واضح مشرق منير- فهي بوقائعها وحقائقها كذلك- فهو المثل الإنساني الأعلى صلى الله عليه وسلم.

خاتمة:

ختاما يمكن القول:

إنه لم تعن أمة من الأمم في القديم والحديث بآثار نبيها وحياته، وكل ما يتصل به من قرب أو بعد، مثل ما عنيت الأمة الإسلامية في تاريخها الطويل، هذه العناية التي كان من آثارها هذه الثروة الطائلة من الكتب المؤلفة

وهو ما يضع دارس السيرة كما أكدنا في هذه الورقات في حيرة شديدة، في أي الكتب يقرأ؟ وبأي كتاب يبدأ؟ وكيف تكون الأولويات في دراسة السيرة؟ وما المنهج السليم الواجب اتباعه؟ فكان هذا البحث إجابة مختصرة لبعض الملامح والنظرات في هذا المنهج.

ولما للمنهج من تأثير في الكتابة فإننا سعينا إلى تحديد أطر منهجية ضابطة للدراسة والكتابة، مع التركيز على أهمية هذا العمل والذي حددناه في فهم حقيقة الإسلام ومنهجه المتكامل، اذ لا يخفى على كل دي لب ما يكتسبه هذا القيد من مكانة من جهة عجز من يفتقده الى قراءة أحداث السيرة قراءة موضوعية تمكنه من سلامة فهم الأحداث، وتقصي أسبابها، ومعرفة دوافعها، وتفسيرها بما يتفق مع روح الإسلام.

(1) السيرة النبوية منهجية دراستها واستعراض أحداثها المرجع السابق ص 87

فالسيرة النبوية الشريفة، شرح عملي عميق في واقع الحياة، وتصوير للقرآن الكريم والإسلام كله، في ميادينها كافة، فمطلوب اليوم أكثر من أي وقت مضى قراءة السيرة ودراستها دراسة استراتيجية في مختلف الحالات الاجتماعية والتربوية والعلمية والإدارية والسياسية والاقتصادية، والحركية والأمنية والثقافية.

مع دقة تحليل الواقع المعاش من خلال متخصصين، لا متحمسين فقط، ثم دراسة السيرة وتحليلها، ثم تحديد مواقع الاقتداء من مسيرة السيرة، أو اكتشاف المرحلة من السيرة التي تمثل حالة الاقتداء وكيفيته من خلال ظروف الحال نفسه.

ثم أكدنا على ضرورة اتباع المنهج السليم في قراءة السيرة وذلك ب:معرفة حدود العقل في قبول النصوص وردها وعدم اهمال الدليل المضاد. باعتباره من أسوأ العيوب المنهجية، وأشدها خطورة على نتائج أي بحث علمي، ثم فهم السيرة من خلال القران وتفادي الانتقائية اذ لابد لاي باحث في السيرة من المقارنة بين ما نزل من القرآن ووقع في السيرة النبوية. وتفادي الانتقائية في اختيار المصادر، ولهذا كان الاعتماد على المصادر الثانوية او غير المتخصصة مما يعيب منهج البحث ويضر بالنتائج، وكذا تمحيص الصحيح من الأخبار فيما يتعلق بالعقيدة والشريعة وهذا هو المنهج المعتبر عند الأئمة المحققين.

ثم ختمنا البحث بمحور تحدتنا فيه عن السيرة النبوية بين طرق التأسي وسبل التنزيل، فأكدنا صدق العاطفة وتوازنها باعتبارها من أسس الكتابة في السيرة ودراستها، اذ توفر المحبة الصادقة لصاحبها صلى الله عليه وسلم فهي العاطفة الحية التي تشعر بمدى الارتباط الحقيقي قلبا وقالبا، والتفاعل الحقيقي مع أحداث سيرته ثم حسن التأسي لأن سيرته عليه السلام تحكي سيرة إنسان أكرمه الله بالرسالة، فلم تخرجه عن إنسانيته،

وقصارى القول: إن سيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم شاملة لجميع النواحي الإنسانية في المجتمع، مما يجعله القدوة الصالحة التي وجبت رسمها في كل أحوالنا، عقيدة وعبادة، بلا مغالاة ولا مداناة، لنكون أناسا ربانيين في كافة أوقاتنا، وقضايانا، وأمورنا كلها، لنسود كما ساد الرعيل الأول، ونعود لحمل مشعل الأمانة ونرتقي لمستوى الخيرية التي ارادها الله عز وجل للأمة الوسط.

لائحة المصادروالمراجع:

- أبو الفضل أحمد بن علي بن محمد بن أحمد بن حجر العسقلاني (ت 852هـ) المطالب
- العالية بزوائد المسانيد الثمانية المحقق: مجموعة من الباحثين في 17رسالة جامعية تنسيق: د. سعد بن ناصر بن عبد العزيز الشَّثري الناشر: دار العاصمة للنشر والتوزيع - دار الغيث للنشر والتوزيع الطبعة: الأولى من المجلد 1 - 11: 1419 هـ - 1984 ممن المجلد 12 - 18: 1420هـ - 2000 معدد الأجزاء: 19(18 ومجلد للفهارس)
- أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت بن أحمد بن مهدي الخطيب البغدادي (ت 463هـ) الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع المؤلف: المحقق: د. محمود الطحان الناشر: مكتبة المعارف – الرياض عدد الأجزاء: 2
- أحمد بن فارس بن زكرياء القزويني الرازي، أبو الحسين (ت 395هـ) معجم مقاييس اللغة المحقق: عبد السلام محمد هارون الناشر: دار الفكر عام النشر: 1399هـ - 1979م. عدد الأجزاء: 6
- أكرم ضياء العمري السيرة النبوية الصحيحة: محاولة لتطبيق قواعد المحدثين في نقد روايات السيرة النبوية الناشر: مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة الطبعة: السادسة، 1415 هـ - 1994م عدد الأجزاء: 2
- تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن عبد الله بن أبي القاسم بن محمد ابن تيمية الحراني الحنبلي الدمشقي (ت 728هـ)منهاج السنة النبوية في نقض كلام الشيعة القدرية المحقق: محمد رشاد سالم الناشر: جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية الطبعة: الأولى، 1406 هـ - 1986م عدد المجلدات: 9
- خالد بن منصور بن عبد الله الدريس العيوب المنهجية في كتابات المستشرق شاخت المتعلقة بالسنة النبوية الناشر: مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف بالمدينة المنورة عدد الصفحات: 47/81
- عبد الرحمن على الحجى السيرة النبوية منهجية دراستها واستعراض أحداثها الناشر: دار ابن كثير – دمشق الطبعة: الأولى - 1420هـ، عدد الصفحات: 456
- محمد الغزالي السقا (ت 1416هـ) فقه السيرة الناشر: دار القلم – دمشق تخريج الأحاديث: محمد ناصر الدين الألباني الطبعة: الأولى، 1427 هـ، عدد الصفحات: 480- 203.
- محمد بن محمد بن سويلم أبو شُهبة (ت 1403هـ) السيرة النبوية على ضوء القرآن والسنة الناشر: دار القلم – دمشق الطبعة: الثامنة - 1427 هـ عدد الأجزاء: 2

- محمد بن مصطفى بن عبد السلام الدبيسي السيرة النبوية بين الآثار المروية والآيات القرآنية رسالة: دكتوراة، كلية الآداب - جامعة عين شمس، القاهرة إشراف: الأستاذ الدكتور عفت الشرقاوي عام: 1431هـ - 2010 عدد الصفحات: ٦٢٤
- محمّد مرتضى الحسيني الزبيدي تاج العروس من جواهر القاموس المؤلف: تحقيق: جماعة من المختصين من إصدارات: وزارة الإرشاد والأنباء في الكويت - المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب بدولة الكويت عدد الأجزاء:40
- مصطفى بن حسني السباعي (ت 1348هـ) السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي الناشر: المكتب الإسلامي- دار الوراق للنشر والتوزيع. الطبعة: الأولى، سنة 2000 م
- مصطفى بن حسني السباعي (ت 1384هـ)السيرة النبوية - دروس وعبر الناشر: المكتب الإسلامي نديم مرعشلي - أسامة مرعشلي الصحاح في اللغة والعلوم (تجديد صحاح العلامة الجوهري (و) المصطلحات العلمية والفنية للمجامع والجامعات العربية) تقديم: عبد الله العلايلي 2497.الطبعة: الثالثة، 1450 هـ - 1985 معدد الصفحات: 172.

التصرفات النبوية من خلال سيرته العطرة:
المقاصد والامتداد

الدكتور: هشام الهدار
أستاذ التعليم العتيق
وأستاذ زائر بكلية الآداب والعلوم الإنسانية
مكناس المغرب

المقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف المرسلين وعلى آله وصحبه أجمعين.

إن من مناحي النظر في السيرة النبوية العطرة، والاستفادة منها، اعتبار التصرفات النبوية، وبعبارة أخرى تمييز التصرفات النبوية في فقه سيرته، وذلك من خلال ربط أقوال النبي صلى الله عليه وسلم وأفعاله وتقريراته بسياقات ورودها وقرائن أحوالها.

وقد عدَّ العلماء التمييز بين التصرفات النبوية من سديد النظر، ومن طرق الفقه الرشيد لسنة النبي صلى الله عليه وسلم، ولذلك ميَّز الأصوليون. مثلا بين أفعاله التي يقصد بها القربة، والتي لا يقصد بها ذلك بل هي من الجبلة[1]، ويختلف الحكم المستفاد باختلاف تصرف النبي صلى الله عليه وسلم.

ونفترض أن السيرة النبوية من خلال مصادرها المختلفة تقدم حيثيات ومعطيات أكثر لتبيُّن التصرفات النبوية، ولذلك حاول البحث مقاربة هذا الموضوع من خلال الخطة الآتية:

بعد المقدمة ثلاثة مباحث، أولهما في بيان مفهوم وأهمية التصرفات النبوية، وثانيهما في التصرفات النبوية والسيرة، وثالثهما في المقاصد والامتداد، ثم خاتمة للخلاصات.

المبحث الأول: التصرفات النبوية: المفهوم والأهمية

المطلب الأول: تعريف التصرفات النبوية

التصرفات لغة جمع تصرف، وجذرها اللغوي (ص ر ف)، قال ابن منظور: "صرف: الصرف رد الشيء عن وجهه، وصرفه يصرفه صرفا فانصرف، وصارف نفسه عن الشيء صرفها عنه، ومنه التصرف في الأمور، يقال إنه يتصرّف في الأمور، وصرفت الرجل في أمري تصريفا فتصرف فيه واصطرف، وتصرّف الشخص: سلك سلوكا معيَّنا، وصرّف الأشياء: نقلها، بدّلها، وجهها"[2].

أما اصطلاحا، فقد عرف الباحثون المعاصرون مصطلح "التصرفات النبوية" بتعريفات متنوعة، أما المتقدمون فلم يعرفوه وإن عَرَفوه، وأعرض تعريفين أظن أنهما يفيان بغرض بيان المقصود من هذا المصطلح.

(1) انظر على سبيل المثال: قرة العين بشرح ورقات غمام الحرمين، أبو عبد الله الحطاب، ص 54.

(2) لسان العرب، ابن منظور، باب: الصاد، المادة: (صرف)، (228/8).

أولهما: التصرفات النبوية هي: "عموم ما صدر منه صلى الله عليه وسلم من تدابير وأمور عملية من قول أو فعل أو تقرير سواء كانت للاقتداء أو لم تكن، سواء كانت في أمور الدين او الدنيا"[1].

ثانيهما: التصرفات النبوية هي: "كل ما صدر من النبي صلى الله عليه وسلم من أمور عملية بوصفه رسولا ومبشرا من أقوال أو أفعال أو إقرارات للتأسي به واتباعه أو لعدمه"[2].

والملاحظ في هذه التعريفات ما يأتي:

أ - اعتبار كل ما صدر من النبي صلى الله عليه وسلم من التصرفات، وبأي طريقة كانت، قولا أو فعلا أو تقريرا.

ب -تقسيم التصرفات إلى أمور دينية وأخرى دنيوية.

ج- تقسيم التصرفات إلى ما قصد به التأسي وما لم يقصد به ذلك.

المطلب الثاني: أهمية فقه التصرفات النبوية.

لتمييز التصرفات النبوية أهمية كبيرة في فقه الدين واستقامة التأسي بالنبي صلى الله عليه وسلم، وهذا ما كان يفعله الصحابة رضوان الله عليهم، ومثال ذلك استفسار الصحابي الجليل الحباب بن المنذر رضي الله عنه الرسول صلى الله عليه وسلم عن الموقع الذي نزل فيه في غزوة بدر، هل هو بوحي وأمر من الله أم الرأي والحرب والمكيدة؟

فأخبره النبي صلى الله عليه وسلم أنه اجتهاد وحرب ومكيدة، فأشار عليه رضي الله عنه بأن "يتقدم فينزل على أقرب ماء من العدو، حتى يصنع المسلمون حياضا يجمعون فيها الماء لأنفسهم، ويغورون الآبار؛ فيبقى العدو ولا ماء له، ففعل"[3].

وفقه ذلك الأئمة الأعلام بعد الصحابة ومنهم أئمة المذاهب الأربعة، وممن أكد على أهمية التمييز بين التصرفات النبوية، وضرورة استحضارها في الاستنباط من النصوص، العلامة الطاهر بن عاشور رحمه الله في كتابه "مقاصد الشريعة الإسلامية"، فقال: "يقصُرُ بعض العلماء ويتوحَّل في خضخاض من الأغلاط حيث يقتصر في استنباط أحكام الشريعة على اعتصار الألفاظ، ويوجه رأيه إلى اللفظ مقتنعا به، فلا يزال يقلبه ويحلله ويأمل أن يستخرج لبّه، ويهمل ما قدَّمناه من الاستعانة بما يحُفُّ بالكلام من حافات القرائن والاصطلاحات والسياق، وإن أدق مقام في الدلالة وأحوجه في الاستعانة عليها مقام التشريع، وفي هذا العمل تتفاوت مراتب الفقهاء، وترى جميعهم لم يستغنوا على استقصاء تصرفات الرسول صلى الله عليه وسلم ولا على استنباط العلل"[4].

هذا النص من العلامة ابن عاشور رحمه الله اشتمل على تنبيهات مهمة، منها:

(1) تصرفات الرسول صلى الله عليه وسلم بالإمامة، سعد الدين العثماني، ص 8.

(2) أثر معرفة التصرفات النبوية في التعامل مع الحديث فقها وتنزيلا، عبد السلام زهير، ص 31.

(3) روضة الانوار في سيرة النبي المختار، صفي الرحمن المباركفوري، ص 172.

(4)مقاصد الشريعة الإسلامية، الطاهر بن عاشور، ص 28.

أ ـ أن الجمود والاقتصار على ظواهر الألفاظ وحدها، لا يكفي للتعامل مع النصوص الشرعية، بل قد يوقع صاحبه في أخطاء عند استنباط الأحكام.

ب ـ إن استحضار القرائن والسياقات المحيطة بالنص، ضروري لفهم مراد الشارع ومقصوده.

ج ـ إن أهم ما يحصل به الفقه وتدرك به تلك المقاصد، تصرفات الرسول صلى الله عليه وسلم؛ لذلك لم يستغن الفقهاء عن استقصائها والعناية بها.[1]

د ـ تفاوت الفقهاء في مقدار التمييز بين التصرفات النبوية.

المبحث الثاني: التصرفات النبوية والسيرة

المطلب الأول: أنواع التصرفات النبوية

ميز العلماء منذ القدم فيما يصدر عن الرسول صلى الله عليه وسلم بين مراتبها وأنواعها، ولذلك قسم الأصوليون السنة إلى أقوال وأفعال وتقريرات، وخصوا كل قسم بالبحث في عوارضه، وبيان مرتبته وحجيته وحكمه عند التعارض.

كما قسموا أفعاله صلى الله عليه وسلم إلى ما يقصد به القربة وما ليس كذلك، وقد نبه على ذلك العلامة الطاهر بن عاشور في كتابه المقاصدي[2].

ولكن من أبرز من ناقش التصرفات النبوية وبين الفوارق بينها الإمام شهاب الدين القرافي رحمه الله (ت684هـ) في كتابه "أنوار البروق في أنواء الفروق" المعروف بالفروق.

وخصص لذلك الفرق السادس والثلاثين، فقال: "الفرق السادس والثلاثون بين قاعدة تصرفه صلى الله عليه وسلم بالقضاء، وبين قاعدة تصرفه بالفتوى وهي التبليغ وبين قاعدة تصرفه بالإمامة"[3]. فذكر ثلاثة أنواع من التصرفات النبوية هي: التبليغ والإمامة والقضاء.

ويعد العلامة الطاهر بن عاشور رحمه الله كذلك من أبرز العلماء المتأخرين الذين فصّلوا القول في التصرفات النبوية فأوصلها إلى اثني عشر نوعا، قال رحمه الله: "وقد عرض لي الآن أن أعدّ من أحوال رسول الله صلى الله عليه وسلم التي يصدر عنها قول منه أو فعل اثني عشر حالا، منها ما وقع في كلام القرافي ومنها ما لم يذكره، والهدي والصلح، والإشارة على المستشير، والنصيحة، وتكميل النفوس، وتعليم الحقائق العالية، والتأديب، والتجرد عن الإرشاد"[4].

ومن المعاصرين الذين اعتنوا بالتصرفات النبوية الدكتور سعد الدين العثماني في كتابه: "تصرفات الرسول صلى الله عليه وسلم بالإمامة: الدلالات المنهجية والتشريعية"، وفي كتابه: "جهود المالكية في التمييز بين التصرفات النبوية".

(1) مقال: تصرفات الرسول صلى الله عليه وسلم بالتزكية وأهميته في حياة الأمة، وديع أكونين، arrzbita.ma.

(2) مقاصد الشريعة الإسلامية، الطاهر بن عاشور، ص 31.

(3) الفروق، القرافي، (357/1).

((4))- مقاصد الشريعة الإسلامية، الطاهر بن عاشور، ص 31.

وقسم هذه التصرفات قسمة عشرية على الشكل التالي:

1- الرسالة.

2- البيان.

3- القضاء .

4- الإمامة.

5- الخاصة (أي ببعض الناس).

6- الجبلية .

7- العدية.

8- الدنيوية .

9- الإرشادية .

10- الخاصة به صلى الله عليه وسلم.

والملاحظ في هذه التقسيمات أنها عامة، ويمكن في رأيي أن نجعلها أكثر تفصيلا، وذلك من خلال إضافة تقسيمات أخرى قد يكون لها تعلق بقسم من هذه الأقسام أو أكثر.

وهذه التقسيمات تفيدنا في اقتباس الهدايات، لأن لها ارتباطا بمواقع النّاس عامّة في المجتمع، ومثال ذلك تصرفاته صلى الله عليه وسلم باعتباره:

1- أبا

2- زوجا

3- تاجرا

4- صديقا

5- أخا

6- جارا

وهكذا كلّما دققنا التقسيم اتضحت الهدايات وسهل التأسي والاقتداء.

المطلب الثاني: نماذج للتصرفات النبوية من السيرة العطرة

أولا: تصرّفه بالتّشريع:

وهو كثير ومن أمثلة ذلك ما نقلته كتب السيرة النبوية من تفاصيل حجه صلى الله عليه وسلم في العام العشر من الهجرة وهي الحجة التي تسمى بحجة الوداع.

فوثّقت الحدث منذ تهيئه للخروج من المدينة صوب الميقات بذي الحليفة إلى مكة ثم المناسك ثم العودة إلى المدينة.

وفي المناسك قال قولته الشهيرة:" خذوا عني مناسككم فلعلي لا أحج بعد عامي هذا"[1].

ثانيا: تصرفه بالإمامة:

والمقصود الإمامة العظمى، وهذا الجانب درس أحكامه العلماء فيما يسمى بالسياسة الشرعية.

ومن أمثلة هذه التّصرفات، وضعه لوثيقة المدينة بعد هجرته إليها، فنظّم بها الحياة داخل مجتمع المدينة بين المسلمين أنفسهم وبينهم وبين غيرهم وعلى رأسهم اليهود، وتعتبر هذه الوثيقة في صورتها القانونية كالدستور للدولة.

وقد اشتملت على مجموعة من المبادئ العامة منها:

- وحدة الأمة المسلمة من غير تفرقة بينها.
- تساوي أبناء الأمة في الحقوق والكرامة.
- تكاتف الأمة دون الظلم والإثم والعدوان.
- حماية من أراد العيش مع المسلمين مسالما متعاونا، والامتناع عن ظلمهم والبغي عليهم.
- لغير المسلمين دينهم وأموالهم، لا يجبرون على دين المسلمين، ولا تؤخذ منهم أموالهم.[2]

ومن تصرفاته صلى الله عليه وسلم بالإمامة إنفاذ الجيوش وإرسال الرسل إلى حكام الدول وملوكها....[3]

ثالثا: تصرفه بالقضاء:

ومن ذلك قوله صلى الله عليه وسلم لهند بنت عتبة امرأة أبي سفيان لما قالت له صلى الله عليه وسلم: إن أبا سفيان رجل شحيح لا يعطيني وولدي ما يكفيني، فقال لها عليه السلام:" خذي لك ولولدك ما يكفيك بالمعروف"[4].

قال القراقي: "اختلف الفقهاء في هذه المسألة وهذا التصرف منه عليه السلام هل هو بطريق الفتوى فيجوز لكل من ظفر بحقه أو بجنسه أن يأخذه بغير علم خصمه به، ومشهور مذهب مالك خلافه، بل هو مذهب الشافعي، أو هو تصرف بالقضاء، فلا يجوز لأحد أن يأخذ جنس حقه أو حقه إذا تعذر أخذه من الغريم إلا بقضاء قاض"[5].

رابعا: تصرفه بالأبوة:

ومثال ذلك عندما توفي ابنه إبراهيم في شهر ربيع الأول من السّنة العاشرة للهجرة وكان عمره ستة عشر شهرا؛ فرأى الناس عيني الرسول صلى الله عليه وسلم تذرفان، فقال عبد الرّحمان بن عوف: وأنت يا

(1)روضة الانوار في سيرة النبي المختار، صفي الرحمن المباركفوري، ص 363.

(2) الرحيق المختوم،صفي الرحمن المباركفوري، ص 143. فقه السيرة، محمد سعيد رمضان البوطي، ص 205.204.

(3) ينظر، الفروق، القرافي، (358/1).

(4)صحيح مسلم، كتاب: الأقضية، باب: قضية هند، ر.ح: 1714.

(5) الفروق، القرافي، (360.359/1).

رسول اللّه فقال صلى الله عليه وسلّم: (إنّ العين تدمع، والقلب يحزن، ولا نقول إلاّ ما يرضى ربنا، وإنّا بفراقك يا إبراهيم لمحزونون)[1].

خامسا: تصرفه زوجا:

أي باعتباره زوجا ومن أمثلة ذلك تصرفاته صلى الله عليه وسلم في حادثة الإفك، لما كان عائدا مع الجيش من غزوة بني المصطلق، فلمّا اقتربوا من المدينة أذن النبي صلى الله عليه وسلم بالرّحيل ليلا، فذهبت عائشة رضي الله عنها لقضاء حاجتها، فلمّا عادت تفقدت صدرها فلم تجد عقدها، فرجعت تبحث عنه...

فرماها المنافقون بالفحشاء واتهموها بالصحابي الجليل صفوان بن المعطل السلمي.

فأصيب النبي صلى الله عليه وسلم بما يصاب به من كان في موضعه من الهمّ وعدم الارتياح، فكان لا يكثر الكلام مع عائشة رضي الله عنه وإذا دخل البيت سلّم وقال: كيف تيكم؟ وكانت مريضة ثم يرجع ولا يجلس عندها.

وقام ذات يوم على المنبر وخطب في النّاس يبرئ أهله ومن اتهموه، فقال:" من يعذرني من رجل قد بلغني أذاه في أهلي واللّه ما علمت على أهلي إلاّ خيرا، ولقد ذكروا رجلا ما علمت عليه إلا خيرا وما يدخل على أهلي إلا معي"[2].

المبحث الثالث: المقاصد والامتداد

المطلب الأول: المقاصد

الحديث عن المقاصد في هذا الباب، هو حديث عن جوهر وروح التّصرفات النّبوية، فإذا كانت القاعدة تقول: "تصرفات العقلاء منزهة عن العبث". فكيف إذا كانت هذه التصرفات صادرة من أعقل العقلاء، وخيرة البشر خاتم الأنبياء والمرسلين صلوات ربي وسلامه عليه. ولذلك إذا نظرنا من جهة المقاصد إلى التصرفات النبوية، نجد لها مقاصد، أي غايات وأهدافا وحكما...، فلكل تصرف مقاصد خاصة به، ولكننا سنخصص الحديث في هذا المقام لمقاصد التّمييز بين التصرفات النبويّة؛ وأذكر منها:

أولا: تسديد الاستنباط:

فالفقيه أثناء عملية استنباط الحكم الشرعي من الدليل التّفصيلي إذا كان من السّنة النّبوية، فيستحضر مراتب السنة وأنواع التصرفات النبوية، فيكون استنباطه مسددا وأدقّا.

ثانيا: ترشيد التّنزيل:

إذ تمييز التّصرفات النبوية هو نوع من فقه واقع التّنزيل النّبوي الشريف للأحكام؛ فيهتدي الفقيه بفقهه للتصرفات النبوية إلى ترشيد فقه التنزيل على الواقع المعاصر الذي هو مناط تنزيل الحكم الشرعي.

(1) صحيح البخاري، كتاب: الجنائز، باب: قول النبي صلى الله عليه وسلم: إنا بك لمحزونون، ر.ح: 1303.

(2) نور اليقين في سيرة سيد المرسلين، الخضري بك، ص 110.

ثالثا: اعتبار المقاصد والمعاني وعدم الاقتصار على الألفاظ والمباني:

إذ من غايات تمييز التصرفات النبوية التمكن من معرفة ما يحف بألفاظ الوحي من قرائن الأحوال وسياقات الورود.

رابعا: مقصد اعتبار التدقيقات والفروق:

أي إنّ اعتبار تنوع التّصرفات النّبوية يحتاج إلى دقّة في النّظر وعمق في الوقوف على الفوارق، وذلك منهج معتبر في الفتاوى والقضاء، ولذلك ألف الفقهاء في الأشباه والنّظائر[1] والفروق[2].

المطلب الثاني: الامتداد

نقصد بالامتداد، الآثار التي يمكن أن تنتج عن الالتفات للتصرفات النّبوية خاصة من خلال سيرته النّبوية، والتي تثري النّاظر بمعطيات سياق الورود وما احتفت به تصرفات النبي صلى الله عليه وسلم من قرائن الأحوال.

ونقصد كذلك مناحي الاستفادة من هذا النّظر الدقيق في سنّة وسيرة النبي الكريم صلوات ربي وسلامه عليه في وقتنا المعاصر، خصوصا في ظل التحديات المعاصرة والمعطيات المتجددة، فامتدادات هذا النظر، أقصد التّمييز بين التصرفات النّبوية بمقاصده يتجلى في أمور منها:

أولا: التّأكيد على شمولية هذا الدّين:

وأقصد احتواء الأحكام الشرعية لكل مناحي الحياة البشريّة، إذ النبي صلى الله عليه وسلم تصرّف من جهات متعددة كما مرّ معنا منها: التبليغ(التشريع)، والإمامة (السياسة)، والقضاء، والإفتاء، والأبوة، والزوجية، والتجارة، والجندية....

ثانيا: التأكيد على عالمية هذا الدين:

إذ النبي صلى الله عليه وسلم قد تصرّف مع غير المسلمين في إطار الرّحمة والسّعي لإيصال الخير للنّاس أجمعين، وتلك هي مهمته التي أرسل من أجلها {{**وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ**}}[3]. وقوله صلى الله عليه وسلم "إنّما أنا رحمة مهداة"[4].

فالنبي صلى الله عليه وسلم وضع وثيقة المدينة وفيها قوانين تنظم علاقة المسلمين باليهود، وكاتب الملوك والأمراء، ووجّه في العهد المكي الصحابة في الهجرة الأولى إلى أرض الحبشة، وقال لهم، "لو خرجتم إلى أرض الحبشة، فإنّ فيها ملكا لا يظلم أحد عنده حتى يجعل الله لكم فرجا ومخرجا مما أنتم فيه"[5].

وفي هذا التصرف ما فيه من الإنصاف في التّعامل مع غير المسلمين.

(1)مثل: الأشباه والنظائر للإمام السيوطي.

(2) مثل: الفروق: للإمام القرافي.

(3) الأنبياء: 106.

(4) المستدرك على الصحيحين، الحاكم النيسابوري، كتاب: الإيمان، ر.ح: 100.

(5) السيرة النبوية: دروس وعبر، مصطفى السباعي، ص 50.

ثالثا: التّأكيد على و اقعية الدّين:

إذ إنّ شرعنا لا يلغي الواقع ولا يهمله، بل يوجب مراعاته سيرا على هدي النبي صلى الله عليه وسلم في تصرفاته.

رابعا: الوقوف على المقاصد الشّرعية:

إنّ اعتبار تعدد أنواع التصرفات النبوية يسعف المجتهد والنّاظر في سيرة النبي صلى الله عليه وسلم من الوقوف على العلل والحكم والمقاصد الشرعية للأحكام الشّرعية والهدايات النّبوية، فيكون التأسي مرشّدا ومسددا.

خاتمة:

من خلال ما تقدّم ذكره في هذا البحث يمكن أن نخلص إلى ما يأتي:

أولا: ضرورة التّمييز بين التصرفات النّبوية.

ثانيا: أهمية السّيرة النبوية في التّمييز بين التّصرفات النّبوية.

ثالثا: أنّ السيرة النّبوية تقدم معطيات أكثر، متعلقة بسياق وأحوال وورود أقوال النبي صلى الله عليه وسلم وأفعاله وتقريراته.

رابعا: التأكيد على شمولية وعالمية وواقعيّة الشّريعة الإسلامية.

خامسا: حاجتنا إلى إعادة النّظر في سرد السّيرة النبوية من خلال تطعيمها بما ورد في الأحاديث النّبوية، وفقه التصرفات النبوية.

لائحة المصادر والمراجع:

- أثر معرفة التصرفات النبوية في التعامل مع الحديث فقها وتنزيلا، عبد السلام زوهير، رسالة دكتوراه، جامعة الحاج لخضر- باتنة، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية والعلوم الإسلامية، السنة الجامعية: 1432-1433/2011-2012.
- الأشباه والنظائر للإمام السيوطي، دار الحديث القاهرة مصر، 1434هـ/2013م.
- تصرفات الرسول صلى الله عليه وسلم بالإمامة: الدلالات المنهجية والتشريعية، سعد الدين العثماني، منشورات الزمن، المغرب، ط2000.
- تصرفات الرسول صلى الله عليه وسلم بالتزكية وأهميته في حياة الأمة، وديع أكونين، arrzbita.ma.
- جهود المالكية في تصنيف التصرفات النبوية: سعد الدين العثماني، دار الكلمة للنشر والتوزيع، ط1، 1424هـ/2012م.
- الرحيق المختوم، صفي الرحمن المباركفوري، رابطة العالم الإسلامي، الناشر دار المستقبل، ط1، 1426هـ/2005م.
- روضة الأنوار في سيرة النبي المختار، صفي الرحمن المباركفوري، وكالة المطبوعات والبحث العلمي، الرياض، ط 11، 1436هـ.
- السيرة النبوية: دروس وعبر، مصطفى السباعي، دار التقوى للطباعة والنشر والتوزيع، مصر، 1439هـ/2018م.
- صحيح البخاري، محمد بن إسماعيل البخاري، ألفا للنشر والتوزيع مصر، 1432هـ/2008م.
- صحيح مسلم، مسلم بن الحجاج، دار الكوثر للطباعة والنشر والتوزيع القاهرة، الطبعة الأولى 1432هـ/2011م.
- الفروق، شهاب الدين القرافي، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، ط3، 2009م.
- فقه السيرة، محمد سعيد رمضان البوطي، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، 1410هـ/1990م.
- قرة العين بشرح ورقات غمام الحرمين، أبو عبد الله الحطاب، دار الرشاد الحديثة، الدار البيضاء المغرب، 1433/2011.
- لسان العرب، ابن منظور، دار صادر للطباعة والنشر، بيروت لبنان، ط 3، 2004.
- المستدرك على الصحيحين، الحاكم النيسابوري، دار الحرمين للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة مصر، ط1، 1417هـ/ 1999م.
- مقاصد الشريعة الإسلامية، الطاهر بن عاشور، دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة، ط5، 1433هـ/2012م.
- نور اليقين في سيرة سيد المرسلين، محمد الخضري بك، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان.

السيرة النبوية و أفق الإنسانية الرحبة
قراءة في بعض المعالم.

الدكتور عبد الله أخواض
أستاذ مادة التربية الاسلامية الثانوي التأهيلي
أستاذ زائر بجامعة السلطان مولاي سليمان
كلية الآداب والعلوم الإنسانية بني ملال، المغرب

مقدمة

إحياء ذكرى المولد النبوي، في هذه السياقات التي تحياها الأمة العربية الإسلامية، وفي ظروف عالمية شديدة التوتر، والانقسامات والحروب، تعبير عن فشل النماذج الفكرية والاختيارات المرجعية للإنسان وحاجته الى أنموذج يحمل سمات، الخير والتعاون التعارفي، الذي يعيد الإنسانية إلى مسارها الطبيعي وإلى الأصل في الخلق والوجود ﴿**وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰۖ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِۚ وَ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِۖ**﴾ (المائدة: 3)،واستعادة القيم المرجعية الإنسانية الكبرى التي تحقق مفهوم الأسرة الآدمية. كما يعتبر إحياء هذا الحدث مناسبة لتجديد الصلة بهذا الدين فهماً وتنزيلاً، سلوكاً وقيماً، ونقد الذات وتقصيرها في أداء واجبها نحو الإنسانية. وهي مناسبة أيضاً لتبديد المخاوف التي يثيرها الإعلام الغربي في حق نبي الانسانية، وتصحيح مفاهيمه المغلوطة، من قبيل "إسلام ـ فوبيا" وثقافة الكراهية التي ينشرها بين الناس، وتقودها بعض الأقلام المغرضة، وتسانده في ذلك بعض المنابر الإعلامية.

الاهتمام بالسيرة النبوية اهتمام بتجربة جمعت بين هدايات الوحي الخاتم، والبعد الإنساني البشري تجربة تؤرخ لخلاصات تجارب الانبياء مع أقوامهم، وتستحضر الواقع الإنساني في تجلياته المعقدة والمتعددة، وأفق هذه الخلاصات.

التجارب السابقة للأنبياء وحدات قياسية جزئية لأقوام بعينهم، أما التجربة النبوية هي وحدة قياسية كاملة ومعيارية لكل الوحدات القياسية الجزئية بما فيها التجارب الإنسانية النسبية، تجربة لها محدداتها المنهجية والمعرفية بحكم خاتمية القرآن الكريم، فعن أبي هريرة رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال:«**إن مثلي ومَثَلَ الأنبياء من قبلي، كمثل رجل بنى بيتاً ، فأحسنه أجمله إلا موضع لبنة من زاوية فجعل الناسُ يطوفون به، ويعجبون له ويقولون: هلاَّ وضعت هذه اللبنة؟ قال : فأنا اللبنة، و أنا خاتم النبيين.**»[1]،مما يجعلها أصولاً كلية في التعامل مع خبرات مجموع الإنسانية بثقة عالية، وتتحدد في الحديث طبيعة العلاقة بين الرسالات السماوية ووظيفة النبوة الخاتمة، المرتبطة بالإتمام والكمال والجمال.

(1) البخاري، صحيح البخاري، كتاب المناقب، باب خاتم النبيين الحديث رقم (3535) .

وهو ما يرشحها للهيمنة على كل السير، وقابلة للامتداد في تفاصيل الحياة بما تملك من قيم معيارية، ومفاهيم مرجعية استوفت شروط النظر العلمي، في معالجة الظواهر الإنسانية والاجتماعية، ويرشحها للتشابك مع الحقول المعرفية الأخرى، بعيداً عن التعقيدات التي تعيشها المعرفة المعاصرة، والعلاقات الانسانية المتوترة، وتصديق وهيمنة السيرة النبوية « استمرارية وتواصل بين الأنبياء في رسالات السماء (التصديق) وفي الاستيعاب التقويمي والتصحيحي النهائي الذي قامت به رسالة الختم(الهيمنة).»[1] على مستوى المفاهيم والسلوكات والتشريعات، إنها «عملية استرجاع للثابت المشترك في رسالات الرسل بعد غربلته ونقده وتمييز صحيحه من باطله.. وإعادة تقديمه بعد نقده وتحليله وتزكيته وإزالة الخصوصيات من خطاب الشعب المرسل إليه، وعرض الكليات المشتركة الخالية من أي تحريف وتغيير، والهيمنة عليه لجعله صدقاً محضاً جارياً في ذات السياق الذي يجعل من رسالات المرسلين رسالة واحدة..»[2] على مستوى الغايات والمقاصد الكبرى في الرسالات السماوية، لتحقيق التواصل الإنساني .

أولاً: قراءة في بعض أعطاب التجربة الانسانية المعاصرة.

التأسيس لفهم أفضل للسيرة النبوية، وقابلية تداول مفاهيمها وقيمها في النظر إلى الظواهر، يبدأ من تشريح التجربة المعاصرة، والوقوف عند اعطابها المزمنة، على الرغم من النجاحات التي حققتها هذه التجربة، فإنها في حاجة إلى نموذج معرفي يعينها على تجاوز تلك الاعطاب، ويمدها بمبررات الاستمرار في العطاء الإنساني المثمر. ويمكن رصد مجموعة من الاعطاب التي تعانيها هذه التجربة دون الخوض في التفاصيل من خلال:

1. تحيزات هذه التجربة وقصورها وأمراض الصراع التاريخي والحقد العقدي الذي يحكمها في علاقتها مع الانساق الفكرية المغايرة، منذ وقت بعيد الى الان، وبؤر التوتر اليوم في العالم شاهدة على هذا التحيز والقصور في تدبير اشكالات الإنسان.

2. غموض الرؤية المعرفية: وتتمثل في قصور المعرفة الإنسانية عن إدراك المعنى حين اعتمدت الرؤية المادية الضيقة، واشباع الغرائز، فغاب الأفق والكينونة.

3. الصراعات المزمنة والعبث بالمصير الإنساني: عودة اللايقين، انهيار الأسس، وتأسس مبادئ المجتمع الانساني المعاصر في مجملها على ثقافة الصراع، والعنصرية وعلى تراتبية مجالية مرتبطة بالمؤشرات الكمية.

4. الأزمة الاخلاقية والقيمية، وانهيار القيم، فالنموذج الغربي بني على القيم المتصادمة مع فطر الإنسان وكينونته، فقد تأسست هذه التجربة على أصلين يقضيان بقطع الصلة بالاعتبارات الاخلاقية والدينية المشكلة لجوهر التجربة الإنسانية السوية، هما: الأصل الأول:" **لا أخلاق في العلم**" حيث غياب القيم

(1) سعيد شبار، الاجتهاد والتجديد **في الفكر الإسلامي المعاصر دراسة في الأسس المرجعية والمنهجية، المعهد العالمي للفكر الإسلامي ، ط1، 2007، ص** ، 379 .

(2) طه جابر العلواني، القرآن المجيد وخطابه العالمي ص29 .نقلاً عن سعيد شبار الاجتهاد، م.س ، ص 381.

المعنوية. الأصل الثاني:" **لا غيب في العقل**" حيث يفقد العقل جوهره، مما يعطي انطباعاً بأزمة هذا النموذج المزدوج: أزمة الاخلال بشروط الصدق قولاً وممارسة، فخرجت أفعالها عن مقتضى الإرادة الإنسانية الحية، حيث اعتقد هذا النموذج مشروعية الانفصال عن القيم الأخلاقية وضرورة إنسانية وأزمة القصد، فالانفصالات التي وقعت في هذه التجربة، بين الأخلاق والعلم، وبين العقل والغيب؛ أدت إلى أزمة المعنى في الإرادة الإنسانية[1]. وتتجلى هذا الأزمة المركبة في كثير من المجالات والتصرفات التي تطبع علاقة هذا النموذج مع غيره، وفي بؤر التوتر التي يحدثها في العالم، وما يؤسسه من أنماط في التحديث لا تتلاءم وغاية الإنسان من الخلق.

فالتجربة الإنسانية المعاصرة تحكمها ثلاث آفات مزمنة، أو ثلاث سيادات[2]، بغض النظر عما عليها اليوم من بعض الانتصارات المادية، والعيش الرغيد: **سيادة التنبؤ وسلطان السطوة**، من خلال ما يتيحه النظام العلمي ـ التقني للعقل في اختصار المسافات واستغلال الامكانات. **سيادة التحكم وسلطان البأس**، الذي يسعى إلى تأسيس عقلانية تنظيمية فائقة. **سيادة التصرف وسلطان البطش**، من خلال قدرة النظام العلمي ـ التقني على تحصيل القدرات وترويضها؛ طلبا للسيادة على الكون، فتستبعد هذه التجربة كل ما لا يمكن ترويضه، حيث ينزل منزلة العائق، **وهي الاخلاق من أصل ديني**، وهو ما يؤشر على نوع من الافلاس لهذه التجربة المعاصرة، وتظهر هذه المؤشرات، في النداءات التي أطلقها عقلاؤها، فالتشريح الذي يمارسه أبناؤها انتهى إلى خلاصات معلومة المعالم(الاغتراب، الخوف، الشذوذ الجنسي، التفكك الاسري والعاطفي، العنصرية، الحروب والإبادة الجماعية) هذا الأخير الذي أنتج معرفة خاطئة عن نفسه، حين اعتبر نفسه الكل في الكل(الكل لولا شيء) واعتبر الاخر المخالف عقديا وحضارياً هامشيا وفائضا بشرياً .

فهذه الانفصالات يتم مراجعتها اليوم على مستوى العلوم الإنسانية والاجتماعية والانتربولوجيا والبحث عن القواسم الإنسانية المشتركة. مراجعات يقودها التيار الإنساني في الغرب والعالم. هو من يتحمل المسؤولية في ترتيب العلاقات من منظور جديد يقر بتعدد الانساق وأبعادها الإنسانية الوظيفية، ومد جسور التواصل وهو ما يسمى بنظرية الأنساق التفاعلية والتعارفية ضمن الانسانية المشتركة والمتعددة.

ثانياً: التجربة النبوية و أفق الإنسانية الرحبة والواسعة: الأسس والمعالم.

1. مقدمة في منهج القراءة.

العودة إلى التجربة النبوية، استئناف في التأسيس المنهجي لعلوم الأمة، بمعايير تلك التجربة، وواقع الإنسان المعاصر، ووعي تحولاته وإرجاعاته. النموذج الذي «تلقى أخر طور من أطوار التحقيق، والجمع بين العقل والشرع، إنسان الختم. ولما كان هذا الطور النهائي أكمل، استوجب أكثر من غيره العناية(...) فيكون

(1) للتوسع انظر طه عبد الرحمن، سؤال الأخلاق،، **مساهمة في النقد الأخلاقي للحداثة الغربية، المركز الثقافي العربي، ط 4/ 2009** ، ص، 92، 94.

(2) المرجع نفسه، ص،115، 118.

الإنسان الذي تحمل هذا الطور الأكمل والأتم أحق بهذه العناية حتى يستحق أن يكون نموذجاً لسواه.»[1]، فالسيرة النبوية مرجعية لكثير من المعارف التي لا ينبغي أن يغفل عنها عقلنا المعاصر، وهو يطمح إلى استعادة توازنه الحضاري، مع شبه إفلاس لمنظومات معرفية مغلقة، فاقدة للمعنى رغم الإمكانات المادية الهائلة التي تتمتع بها، ومن هذه المعارف التي تحتاج الأمة فيها إلى الاستقلال، ويجد فيها أهل الاختصاص مادتهم العلمية والمنهجية، ما يُعرف بالعلوم الإنسانية والاجتماعية، التي تعاني فيها الإنسانية الآلام والأوجاع التي لم تكن في أسلافها؛ نتيجة الذهول عن المنهجية القدوة، السيرة السنة النبوية، في مجالات متعددة من التربية الفردية والمجتمعية، إلى الفقه الحضاري العام وسننه، في أفق التأسيس لفقه حضاري راشد يمتلك كل مقومات البناء الإنساني.

مع ضرورة ربط دراسة ووعي السيرة بالقرآن الكريم والسنة النبوية، فكلها مرجعيات تتكامل على مستوى الافق، والمفاهيم والقيم، سيرة ممتدة إلى ما قبل البعثة، والقيم التي جسدتها تلك المرحلة الطويلة من حياته صلى الله عليه وسلم، وما تَحَمَّلَهُ من عبء تلك المرحلة وصراعاتها القبلية، وقدرته على الانخراط الإيجابي في تفتيتها مثل تسوية الخلافات بين القبائل العربية بمنطق يراعي المصالح والمفاسد؛ ففض النزاع بين القبائل العربية في وضع الحجر الاسود التي كان فيها العدل حاسما، حيث حقن الدماء والسعي لتحقيق نوع من التوافق الذي يجمع ولا يفرق، على الرغم من الخلافات. وما يؤكد هذه القيم الإنسانية، في حياته عليه الصلاة والسلام ، قبل البعثة شهادة خديجة رضي الله عنها(كلا والله ما يخزيك الله أبداً إنك لتصل الرحم وتحمل الكلّ، وتكسب المعدوم وتقري الضيف، وتعين على نوائب الحق) جاء هذا التذكير في سياق التخفيف والتثبيت لما خشي عليه السلام على نفسه، لكن في سياق طبيعة الرسالة التي يحملها عليه الصلاة والسلام والقيم المؤطرة لها، الذي سبقه التأمل بغار حراء في أحوال المجتمع، والاهتمام بمعاناته.

2. معالم الانسانية الرحبة والواسعة في السيرة النبوية.

ينطلق هذا الوعي المنهجي في دراسة السيرة النبوية، من مرتكز ومحدد منهجي للقرآن الكريم وللنبوة هو محدد العالمية، بوصفه «كتاباً للبشرية جمعاء يختزن بين دفتيه وعيا معادلا للوجود الكوني وحركته، فبقدر ما يكون تخلفنا عن وعي هذا الكتاب نحرم أنفسنا والبشرية من متاحات حل إشكاليات المعرفة الأمر الذي يجعلنا والبشرية كلها فريسة للتوجهات المادية والوضعية والصراعات "الإثنية" والحضارية الزائفة.»[2]؛ لتحرير الوحي من المفاهيم التي ارتبطت بفترة الصراع في الغرب بين العقل والنصوص الدينية، وإلغاء التسوية بين وحي ما يزال يتمتع بمعياريته المنهجية والمعرفية العالمية، وبقدرته الاستكشافية والتركيبية، وبين خطاب حصري قومي لا يمتلك مواصفات الامتداد المعرفي والمنهجي العالمي، وهو ما يعيد لهذه السيرة وظيفتها الإنسانية في الترشيد، وتدبير العلاقات الإنسانية نحو أفق جديد، تنمو من خلاله المبادرات الخيرة، وتعيد الاعتبار للتعاون على الخير، وللأسئلة المعنى في عالم تلفه المخاطر، ولمفهوم الهوية الإنسانية.

(1) طه عبد الرحمن، سؤال الاخلاق، م. س، ص 160، 161.

(2) محمد أبو القاسم حاج حمد، القرآن والمتغيرات الاجتماعية والتاريخية، دار الساقي بيروت، ط1، 2011، ص52.

فالواقع المعاصر شاهد على مذبحة جديدة للإنسان، شارك في إنجازها الجميع وبإخراج متقن وبلغة تعبيراتها فاقت كل التعابير، مذبحة لم تستثن أحداً من هذا العالم، نال منها الإنسان العربي المسلم حظه، نتيجة اختيارات خاطئة وولاءات أيديولوجية فاقدة للمعنى، إنه العقل الأعمى الفاقد للإحساس والمشاعر الجميلة نحو هذا الإنسان ومصيره في هذا الكون، وتحريره من ثقافة الاستهلاك والسوق، من أسطورة الإطار المادي المغلق، أو الجبر المادي، إلى رحابة الإنسانية الممتدة الواسعة، التي يجد فيها المعنى والقصد. ويمكن رصد مجموعة من المعالم في السيرة النبوية، تعبر عن هذا المحنى الإنساني من خلال الآتي:

أ.معلم الرحمة: وصف الله تعالى أخلاق النبي صلى الله عليه وسلم في القرآن بقوله﴿**وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ**﴾(القلم: 4) وهو ما تجلى في تصرفاته عليه السلام ووظيفة اصطفائه﴿**وَمَا أَرْسَلِنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ** ﴾ **(الانبياء/106)** وقوله تعالى﴿ **فَبِمَا رَحِمَةٍ مِنَ اللهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْكُنْتَ فَظّاً غَلِيظَ اَلْقَلْبِ لانْفَضُّواْ مِنْ حَولِكَ. فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمَ فِي الاَمْرِ. فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ. إِنَّ اللهَ يُحِبُّ اَلْمُتَوَكِّلِينَ**﴾ **(ال عمران/159)**. وقد تجلى هذا المعلم في تغليبه عليه الصلاة والسلام، خلق الرحمة حالة الظلم على منطق الانتقام: الشاهد عندنا محنة الطائف (العمق الاستراتيجي لقريش) (قبلها محنة الفقد لحبيبين: خديجة وعمه، والأذى الشديد الذي لقيه من قريش) التي تعرض فيها لكل أنواع الظلم والأذى حتى سال دمه الزكي على أرضها.

كانت رحمته هي التي تغلب في المواقف الصعبة؛ التي تبلغ فيها المعاناة أشد مراحلها، وتضغط على النفس لتشتد وتقسو، وعلى الصدر ليضيق ويتبرم، على الرغم من ذلك تبقى نفسه الكبيرة، ورحمته العظيمة هي الغالبة. سألته عائشة رضي الله عنها: هل أتى عليك يوم كان أشد من أحد؟ لقد لقيت من قومك ما لقيت، وكان أشد ما لقيتُ، وكان أشد ما لقيت منهم يوم العقبة؛ إذ عرضت نفسي على ابن عبد يَالَيْلِ بن عبد كُلال، فلم يجبني إلى ما أردت، فانطلقت وأنا مهمومٌ على وجهي، فلم استفق الا وأنا بقرن الثعالب، فرفعت رأسي فإذا أنا بسحابة قد أظلَّتني، فنظرت فإذا بها جبريل، فناداني، فقال: إن الله قد سمع قول قومك لك، وما ردوا عليك، وقد بعث الله إليك ملك الجبال لتأمرَه بما شئت فيهم. فناداني مَلَكُ الجبال، فسلم عليَّ، ثم قال: يا محمد فقال: ذلك فيما شئتَ، إن شئتَ أن أُطْبِقَ عليهم الأخشبينِ. فقال النبي صلى الله عليه وسلم: بل أرجو أن يُخْرِجَ الله من أصلابهم من يعبد الله وحده، لا يشرك به شيئا." [1] فرفض فكرة الاستئصال للمخالف عقديا، في وقت يفتح أمامه مساحات للمراجعة والعودة الى الصواب، واختبار اختياراته أمام منهج يؤمن بالتعايش المشترك.

ب.معلم العدل: جسد النبي عليه الصلاة والسلام هذا المعلم في حلف الفضول، حين دافع عن قيمة العدل و عن حقوق الناس ومحاربة الفساد، مع ما تحمله هذه المشاركة النبوية من قيم المخالطة الإيجابية للمجتمعات الإنسانية في رفع الظلم ومحاربة مظاهر الفساد، من خلال البحث عن مناطق التعاون والخير

(1) صحيح مسلم كتاب الجهاد، باب ما لقي النبي صلى الله عليه وسلم من أذى المشركين والمنافقين، حديث رقم(1795).

بغض النظر عن الاختلاف العقدي والثقافي شرط الا يكون من المعتدين والمحاربين، وهي مناسبة لاستعادة هذا المعلم النبوي الانساني في لحظة حرجة للأمة وللإنسانية للخروج من الضيق والضنك الاجتماعي والاقتصادي والثقافي. ﴿**وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰۖ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِۖ**﴾(المائدة: 3)، وهو شوق راوده عليه الصلاة والسلام بعد البعثة(ما أحبُّ أن لي به حُمْرُ النَّعَم، لو دعت به في الاسلام لأجبت) وهي دعوة انسانية راقية تعيد قيمة العدل الى واجهة الاحداث، على الرغم من المرجعيات المتناقضة.

فالعدل قيمة انسانية مطلقة، ومعيار الإنسانية الحقة وسنة من سنن الله في النصر، فالإسلام لا يعترف بالمظاهر في الانتماء، والتدين المغشوش الذي يفوت مصالح الخالق في الخلق. إنما بالجواهر ومقاصد الافعال، فالإسلام يحارب الظلم، ويقف بجانب المظلوم دون النظر الى لونه ودينه ووطنه، وجنسه. فالعدل قاعدة الاختيار النبوي للحبشة(**لو خرجتم الى أرض الحبشة؛ فإن بها ملكاً لا يظلم عنده أحدٌ، وهي أرض صِدْقٍ، حتى يجعل الله لكم فرجاً مما أنتم فيه**) وتوفير شروط الاستقرار والأمن واعادة ترتيب علاقات الجوار وتوسيع شبكة العلاقات الدولية والانسانية، وبناء مفهوم جديد للوطن، الذي يتحقق فيه الاستقرار والأمن ويتيح امكانات العبادة لله تعالى، والاطمئنان النفسي فيتحدى الاسلام إطار الجغرافية الضيقة الى الجغرافية الواسعة للإنسان﴿**يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ**﴾ (العنكبوت: 56) فالكون كله لله.

فاختيار الحبشة يثبت النسق المفتوح للإسلام في التعامل ولا يخشى الانساق الاخرى، بل يجاورها ويساكنها ويحاروها ولا يعاديها. فمعايير الهجرة في النص معياران: معيار العدل ومعيار الصدق، وهي مفاهيم إنسانية بامتياز. ويبدو هذا المعيار اليوم مهما في تسوية النزاعات وايجاد الحلول، فالعدل وحدة معيارية للإنسانية الرحيمة. فهذا البعد الكوني الإنساني هو ما أشار اليه النجاشي بعد حواره مع جعفر بن أبي طالب، حين أثبت تكامل الرسالات السماوية (إن هذا .والله .الذي جاء به موسى، ليخرج من مشكاة واحدة، بعد قراءة جعفر رضي الله عنه لسورة مريم.

ج. **مفهوم المواطنة الواسعة**: عبرت وثيقة المدينة عن مفاهيم جديدة، فحدث الهجرة أرَّخ لمرحلة جديدة في تاريخ الإنسانية على مستوى المفاهيم وقلب للمعايير التقليدية في الاجتماع الإنساني، حين أكدت الوثيقة الدستورية للمدينة على المفهوم الواسع للوطن والمواطنة، على الرغم من التناقضات العقدية والفكرية للمدينة، والهويات المتناقضة، فاختلاف الدين ليس سببا للحرمان من مبدأ المواطنة، حين جعلت الوثيقة اليهود جزءاً من مواطني الدولة الاسلامية، والانتقال من قاعدة القبيلة الى قاعدة المواطنة الصالحة والمنتجة والواسعة، كما جسده موقف النبي صلى الله عليه وسلم من اختياره لعبد الله بن أريقط الأمين في الطريق الى المدينة تدعم هذا البعد الانساني في السيرة، وانفتاحها الى الخبرة الانسانية بغض النظر عن خلفياتها العقدية، وهي خلفية أكدتها التجربة الحضارية الاسلامية على اختلاف سياقاتها التاريخية. وهذا ما يدفع الى استثمار هذه السيرة في بناء علاقات أكثر انسانية بدل الذي يجري اليوم.

مع ما أثمرته هذه الهجرة من قيم جديدة في التكافل والمؤازرة، والتساكن وتقسيم الثروة. وقد كشفت أزمة كوفيد19 عن حاجة الإنسانية الى استعادة هذه القيم، بعد التصدع الذي أحدثته الشركات الكبرى ومفاهيم صراع الكبار، في عالمنا العربي والغربي والانساني بشكل عام. تبدأ الحضارة في منطق الاسلام من هذه القيم التي تعزز شبكة العلاقات الاجتماعية والإنسانية، والتسابق الى الخير والانتاجية. ومن مظاهر إنسانية هذه الوثيقة: مراعاة مبدأ تكافؤ الفرص للجميع، فالكل منخرط في الانتاجية والبناء حسب قدراته وفق قاعدة المواطنة القائمة على الواجبات والحقوق، دون اعتبار لسلطانه، أو حَسَبِه وانتمائه العقدي. النموذج المدافع عن الحق في العيش والعدل في الكون. قدم ت الوثيقة مفاهيم الاسلام الصحيحة في بعدها الانساني.

د. **إعلان حجة الوداع ومبادئ الانسانية المتعددة والمشتركة**.

شكل إعلان حجة الوداع ميثاقاً إنسانيا متقدماً على كل المواثيق الدولية، على مستوى فلسفته وعمقه الإنساني الذي ألغى الحدود الوهمية بين الإنسانية، وجسد فلسفة البعثة النبوية ومقاصدها، بدل الانسانية الواحدة التي تنعدم فيها القيم المشتركة، ويهيمن عليها البعد الواحد والإقصاء والتهميش. هكذا شكل «الوجود الإنساني في المنظور الإسلامي (...) فرضية منهجية هامة، وهي أن هذا الوجود يتميز بالتعدد المتكامل في وحدة وكيان إنساني موحد.»[1] ، فقد تعثرت كل الفلسفات التي اهتمت بالإنسان، حين ركزت على جانب من جوانبه التكوينية أي اشتغلت على التعدد دون التكامل كما هو الشأن بالنسبة للمعرفة في السيرة النبوية بأصولها ومحدداتها.

- **حرمة الدماء والاموال والاعراض:** (إن دماءكم وأموالكم حرام عليكم، كحُرمة يومكم هذا، في شهركم هذا، في بلدكم هذا) هذا المثلث المستنقع عطل في الأمة عوامل الانتاج والعطاء. مع وجود امكانات النهوض فيها. بل العالم المعاصر يشكو هذه الأمراض، حين غير العلاقات الطبيعية بين بني الإنسان، إلى علاقات الشذوذ، وانتهاك الفطرة الإنسانية. فهذا التشريع النبوي خلخل الفلسفات المادية، والتشريعات الانسانية الضيقة، حين أصرت على إهدار الكرامة الإنسانية، من خلال سلسلة الحروب والدمار والخراب الذي دفعت اليه بني آدم، ونهب خيرات الشعوب ـ الإمبريالية القديمة والجديدة ـ
- **تحرم الربا:** مع ما يترتب عليه من أكل أموال الناس بالباطل وبغير حق، ومن هدر للكرامة والإنسانية واستغلال فاحش لقدراتها الانتاجية، واختلال لميزان العدل في توزيع الثروة، فيتأسس بذلك نظام اقتصادي إنساني، خارج منطق الصراعات الطبقية، التي اتجه الإسلام إلى نسفها وتذويبها، ويمنع الاستيلاء على "قوة عمل" الاخرين، الذي يحول دون نمو اقتصادي عادل. فتحريم الربا اعلان ميلاد علاقات جديدة تحترم إنسانية الإنسان، وتقدر جهوده وتؤسس لمنطق يغلب عليه خلق الرحمة والرفق.

(1) عبد الحميد أبو سليمان، قضية المنهجية في الفكر الإسلامي، **المعهد العالمي للفكر الإسلامي، رسائل إسلامية المعرفة (4) 1989.** ص 28.

- **تكريم النساء**: مع ما يعنيه ذلك من ابراز لقيم الإسلام في حماية النسيج الاجتماعي الإنساني من الظلم، خصوصا وأن المرأة كانت ضحية الفكر الجاهلي، على اعتبار المرأة قاعدة البناء الإنساني الرحيم، ومصدر السلم والرحمة والسكينة والمودة.﴿ **وَمِنْ اٰيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِنَ اَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجاً لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَوَدَّةً وَرَحْمَةَ اِنَّ فِي ذَلِكَ لأَيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ**﴾ (الروم/20)، هي من يؤسس لقاعدة التعارف الآدمي الممتد ﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيرًا وَنِسَاء وَ اتَّقُواْ اللهَ الَّذِي تَسَاءلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا**﴾(النساء: 1)

- **الإنسانية المتعددة الرحبة والواسعة**: تبدأ ملامح هذه الإنسانية من النداء النبوي الخالد في حجة الوداع (**أيها الناس، ألا إن ربكم واحد، وإن أباكم واحد ، الا لا فضل لعربي على عجمي، ولا عجمي على عربي، ولا لأحمر على أسود، ولا أسود على أحمر الا بالتقوى**) انسانية واحدة من حيث الاصل والانتماء، لكنها متعددة في أشكالها وانتماءاتها التاريخية والجغرافية والعرقية، ما يتيح لها التعاون على الخير وفق الاصل الاول(إن ربكم واحد، وإن أباكم واحد) مع معيار أخلاقي موضوعي تقاس بها اعمال الإنسانية بعيداً عن المعايير الذاتية القاصرة عن القياس الصحيح. فـ«خاطب في البشرية انتماءها التكويني إلى أصل واحد، أي الانتماء الخلقي الذي يلغي كل أشكال التمايز الأخرى عنصرية كانت أو اجتماعية، ثم ربط الخطاب بالمبادئ المشتركة للتعايش البشري مؤكداً على حرمة الأنفس والأموال "إن أموالكم ودماءكم عليكم حرام" وموجهاً إلى الضوابط العائلية وحقوق المرأة ومحرضاً على منع الربا الذي يعني تركيز الثروة واستلاب فوائض قيمة عمل الآخرين.»[1]،فقد ركز خطاب السيرة النبوية في إعلان حجة الوداع على هذه الإنسانية المفتوحة العريضة والممتدة.

خاتمة:

هذه بعض من المعالم الانسانية الواسعة في السيرة النبوية، وهي سمة بارزة تحتاج الاستثمار والتفعيل، الذي يدفع الامم نحو التعاون. إنسانية تشكل نموذج الرشد الانساني القائم على: **ثقافة العدل، والتعدد والتعايش، وثقافة الحوار والحضور والتفاعل الحضاري، وعلى ثقافة الرفق والتراحم**، فهذه الأسس والقواعد لا يمكن أن تختلف حولها الإنسانية، في وقت تعرف فيها انقلاب المعايير، وفي حاجة إلى نموذج قياسي يعين على تجاوز الاعطاب التي تَحُدُّ من العطاء والانتاج، فليست السيرة النبوية سلسلة من الأحداث التاريخية، إنما هي مجال خصب من المفاهيم والقيم المرجعية الإنسانية، بأفق يجمع بين هدايات الوحي المقدس، والتجربة الإنسانية النسبية. وهو ما يدفع في اتجاه إعادة قراءتها وفق السياقات المعاصرة، وما تفرزه من اشكالات، لم تعد الوصفات المعرفية القاصرة، قادرة على الفهم والتحليل والتركيب.

(1) محمد أبو القاسم الحاج حمد، الأزمة الفكرية في الواقع العربي الراهن، دار الهادي، **قضايا إسلامية معاصرة، ط1، 2004**. ص103.

المصادروالمراجع

- القرآن لكريم برواية ورش عن نافع.
- الحافظ ابي عبد الله محمد بن اسماعيل بن ابراهيم بن المغيرة الجعفي البخاري، الجامع الصحيح المسند من حديث رسول الله وسننه وأيامه، مكتبة الرشد، ناشرون، الرياض، ط2، 2006.
- الإمام أبي الحسن مسلم بن الحجاج بن مسلم النيسابوري، دار السلام للنشر والتوزيع، الرياض، ط2، 2000م،
- سعيد شبار، الاجتهاد والتجديد في الفكر الإسلامي المعاصر دراسة في الأسس المرجعية والمنهجية، المعهد العالمي للفكر الإسلامي ، ط1،2007.
- طه عبد الرحمن، سؤال الأخلاق،، مساهمة في النقد الأخلاقي للحداثة الغربية، المركز الثقافي العربي، ط 4، 2009.
- عبد الحميد أبو سليمان، قضية المنهجية في الفكر الإسلامي، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، رسائل إسلامية المعرفة (4) 1989.
- محمد أبو القاسم الحاج حمد، الأزمة الفكرية في الواقع العربي الراهن، دار الهادي، قضايا إسلامية معاصرة، ط1، 2004.
- محمد أبو القاسم حاج حمد، القرآن والمتغيرات الاجتماعية والتاريخية، دار الساقي بيروت، ط1،2011.

معالم الدرس السيري في حفظ الأمن الاجتماعي

الدكتور أحمد الرزاقي1
أستاذ محاضر بجامعة مولاي اسماعيل الكلية المتعددة التخصصات بالرشيدية المغرب

مقدمة:

بسم الله الواحد الأحد الفرد الصمد، والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين نبينا الأكرم سيدنا محمد وعلى آله وصحبه الكرام.

لقد شكلت السيرة النبوية منهاجاً قويماً وطريقاً واضحاً نحو الأمن العالمي والتعايش الإنساني بكل مكوناته، ومن المؤكد أن الذين تعرفوا على النبي ﷺ حق المعرفة عرفوا قدره وأجلوا عطاءه وأدركوا نبوته وحقيقة ما جاء به، من الرحمة للعالمين المتجسدة أساساً في الدعوة الجادة للسلم العالمي والأمن الإنساني.

وتعتبر السيرة النبوية تنزيلاً واقعياً لتعاليم الوحي ومقتضياته، ونموذجاً لواقعية الإسلام وعموم صلاحيته في كل ظرف وكل إنسان، فجسدت بوقائعها وأحداثها ومراحلها أروع الأمثلة للسلم والتعايش بين الشعوب والأجناس والأديان، من غير إكراه ولا ابتزاز ولا تعسف، ولا إقصاء لمشاركة الآخر في بناء الحضارة الإنسانية وعمارة الأرض؛ فكل الإنسان مستخلف في الأرض ومسؤول عن عمارتها، وترشيد بنائها، بغض النظر عن جنسه أو دينه أو عرقه، فكل بناء إيجابي وإضافة قيمة تعتبر عمارة للأرض واستخلاف فيها، يُقْبَلُ مِمَّنْ كان.

وأي نوع من الخراب والفساد في الأرض مستنكر مهما كان مصدره، وجب تضافر الجهود لإنكاره والوقوف ضده والحد من آثاره السلبية وتحميل مسؤولية ما أفسد مادياً كان أو معنوياً، فكل ما شذ عن الطبيعة وأفسد الفطرة أو مس بكرامة الإنسان وتميزه الإيجابي وجب الوقوف ضده وإنكار منكره والتعاون على صده عن فساده ومنكره مهما كان فرداً أو جماعة أو دولة أو منظومة صناعية أو حضارية.

فاللا تعايش نتيجة لصناعة الكراهية والطائفية والعنصرية المقيتة، والأنانية الاجتماعية، ظلم الأقوياء للضعفاء والأغنياء للفقراء، والتمادي في إفساد البيئة، وذكية وقود الحروب بين الأمم والشعوب، وغزو الأوطان والسطو على خيراتها وثرواتها، واستعمارها سياسيا واقتصاديا وعسكريا وثقافياً.

فالسيرة النبوية استراتيجية واقعية وخطة عملية لصناعة التعايش بين الناس وإفشاء السلم العالمي؛ انطلاقة من العمران وترشيد الاستخلاف في الأرض، بناءً على أن السيرة هي الخطة العملية لتنزيل مقتضيات الوحي قرآناً وسنة، على أرض الواقع، فضربت أروع الأمثلة في التعايش وصناعة الأمن والأمان والسلم والسلام. والمتتبع لمراحل السيرة وأطوارها وأحداثها من البعثة النبوية إلى آخر الخلفاء الراشدين يجد ها تشكل نموذجاً يحتدى للعدل والمساواة بين جميع الناس وتعميم الرحمة التي بعث بها النبي ﷺ للناس كافة

(1) وعضو فريق البحث في التراث الشرعي واللغوي والتربوي بالغرب الإسلامي جامعة مولاي إسماعيل، ورئيس مركز بحث للقيم والدراسات المعرفية، مدير مجلة وعي للدراسات المعرفية.

مصداقاً لقوله جل ثناؤه: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾(الأنبياء: 107) وقوله سبحانه: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةٗ لِّلنَّاسِ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗا﴾ (سبأ: 28).

فهذه العالمية تجسدت في كل أطوار السيرة النبوية والخلافة الراشدة مما يدل على واقعية الإسلام وصلاحيته لكل ظرف وكل إنسان، إذ هو رحمة للمؤمن والكافر والمسلم والملحد في الدنيا بما يقيم من العدل والإنصاف وحفظ الحقوق لعموم الناس وعموم الكائنات من الحيوان والنبات وكل محيط البيئة، فلم يترك شيء ينبغي حفظه إلا وأقام له منهجاً مستقيماً بحفظه، والأمثلة على هذا أكثر من أن تحصى ومعلومة معروفة.

فأقام الإسلام منهجاً استباقياً لتعامل مع ما يحفظ على الناس أمنهم ويحفظ السلم بينهم ويجعلهم في صرح التعايش ومقام الكرامة، ومن خطته الاستباقية أن وضع منهاجاً لتفكيك التطرف والعنف والكراهية والعنصرية؛ وحفظ الحقوق بالعدل والأمر بالاستقامة، وأقام مقومات المجتمع المتعايش بدأ بالأمن الداخلي لأفراد المجتمع، وفي الآن نفسه صناعة السلم الاجتماعي القويم.

والسؤال الجوهري والإشكال الحقيقي المعاصر: أين الخلل؟ لماذا استنكفت الأمم عن التعايش وجنحت إلى الإثم والعدوان؟ وما السبيل إلى معالجة الوضع وتصحيح ما يمكن تصحيحه؟ ما الصوى والهدى المنهاج الذي يمكن للسيرة النبوية والخلافة الراشدة أن تقدمه للعالم المعاصر لتنتشله من حمئة العنصرية وجاهلية الطائفية وموت الضمير؟.

إن نفخة الروح في التعايش مرتبطة بمنظومة متداخلة ومركبة ثقافياً ودينياً وسياسياً واجتماعياً واقتصادياً، فالتعايش لا يصنع إلا داخل دهاليز السياسة الكبرى والتوجهات العامة للأمم، إذ التعايش يرضع من أثداء الأمهات وتشكله المدرسة والإعلام والبيئة والثقافة والسياسة والدين؛ ونظم المعيشة ونمط الحياة ومحيط التنشئة كله.

بعد هذه التوطئة وإشكالها الكبير الذي يحتاج إلى حيز أكبر من الوقت والمحل للإجابة عنه أو الإسهام في الإجابة عنه ولو نظرياً بوضع الصوى السيرية والهدى المنهاج في معالجة النبي لمعضلة اللاتعايش بكل أشكاله ومشكلاته وصناعة المقومات الحقيقية للتعايش المتكافئ المادية والمعنوية الفردية والجماعية الحضارية والإنسانية؛ مقومات حقيقية لا شكلية؛ كل هذا يحتاج إلى ظرف مناسب غير هذا الحيز الذي يلزمن أخلاقيا باحترام قواعده المعلومة المتفق عليه.

ومن هنا أعرض صفحاً عن الإشكال الكبير إلى جزء منه يليق بالمقام كالآتي: فما معنى السيرة النبوية من حيث المفهوم والحيز والأهمية باعتبارها النموذج الواقعي للوحي؟ وما معالم الانتفاع بها في الوقت المعاصر باعتبارها صوى وهدى منهاجي لمعضلة العصر؟ وما الأفق السلم والتعايش باعتبارهما صنيع السيرة النبوية والخلافة الراشدة؟ وما آفاق السلم والتعايش في واقعنا المعاصر؟

المبحث الأول: في معنى السيرة النبوية.

فلا شك أن هذا المركب الوصفي دل على ما دلت عليه مفرداته التصورية ابتداءً قبل الدلالة على معناها اللقبي فالسيرة من السير سار يسير سيراً في معناها الحسي، وهو ما «يدل على مضي وجريان، يقال سار يسير سيرا، وذلك يكون ليلا ونهارا، والسيرة: الطريقة في الشيء والسنة، لِأَنَّهَا تَسِيرُ وَتَجْرِي. يُقَالُ سَارَتْ، وَسِرْتُهَا أَنَا»(1).

ثم استعير هذا المعنى لما تكون عليه حياة شخص معين؛ ومنه اشتقت السير الذاتية والعلمية، لعظماء التاريخ، فـ«السِّيرَةُ: الحالة التي يكون عليها الإنسان وغيره، غريزيّا كان أو مكتسبا، يقال: فلان له سيرة حسنة، وسيرة قبيحة»(2)،فنقول سيرة فلان أي أطوار حياته ومنجزاته وتأثيره في محيطه، وأهم الأحداث الكبرى التي مر منها، سلبية كانت أو إيجابية، ومنه «سار الوالي في الرعية سيرة حسنة»(3)، إذا كان عادلاً بين رعيته قواماً بالحق عليهم، قائماً بما يصلح شؤون رعيته في دينهم ودنياهم. الحاصل أن السيرة هي الحالة التي تطبع حياة شخصية معين أو عظيم من العظماء وتتلخص في أهم الأحداث والمواقف والأطوار التي مر منها في حياته، وصحت نسبتها إليه، حسب ما أسندت إليه من الأشخاص.

والمراد بالنبوية نسبة إلى نبينا الأكرم المبعوث رحمة للعالمين خاتم الأنبياء والمرسلين، محمد بن عبد الله المطلبي الهاشمي القريشي، فكان «مما لا شك فيه أن لفظة السيرة قد استعملت بمعنى سيرة النبي ﷺ قبل ورودها عند ابن هشام فروايته عن ابن إسحاق»(4).

فالمراد بالسيرة سيرته من مولده إلى مماته وما عقبه من السير على سنته والتأسي بسيرته في عهد الخلافة الراشدة، لأن هذه الأخيرة اختبار لحقيقة واقعية الإسلام وصلاحيته المستمرة، فسيرة الخلفاء الراشدين نموذج لتطبيق الإسلام وتنزيله بعد وفاة المعصوم المؤيد بالوحي ﷺ، فلا تكتمل الصورة الحقيقية الكلية للسيرة إلا بسيرة الخلفاء الراشدين. ومما لا شك فيه أن السيرة العطرة ذات طابع عملي وسلوك واقعي «ومن أجل ذلك النهج العملي في الدعوة والتربية للأتباع كان أثر رسالات الأنبياء في حياة البشرية أثرا عميقا شاملا، في حين بقيت آراء الفلاسفة قابعة في كتبهم ولم تتحول إلى واقع عملي .. ولكل عاقل أن يقارن

بين أثر القرآن والسنة وبين جمهورية أفلاطون أو مدينة الله لأوغسطين أو المدينة الفاضلة للفارابي، ليدرك أن رسالة النبي ﷺ هي النهج العملي المؤثر في حركة التاريخ ومصير الأحياء»(5).

والتقدير أن سيرة الخلفاء الراشدين جزء لا يتجزأ من السيرة النبوية، إذ هي تتميم لنموذج التنزيل الواقعي للوحي وسيراً على الهدي النبوي في معالجة القضايا الطارئة والنوازل المستجدة؛ وسيرتهم قياس على سنتهم

(1) مقاييس اللغة لابن فارس: باب السين والياء وما يثلثهما؛ سير

(2) المفردات في غريب القرآن: كتاب السين؛ سور.

(3) أساس البلاغة للزمخشري: 1/ 488.

(4) مقدمة تحقيق مغازي الواقدي: 1/ 19.

(5)- السيرة النبوية الصحيحة محاولة لتطبيق قواعد المحدثين في نقد روايات السيرة النبوية؛ أكرم ضياء العمري: 2/ 579.

المأمور باتباعها، كما في وصية المعصوم ﷺ: **(عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين، فتمسكوا بها، وعضوا عليها بالنواجذ)** (1)، فكما أن سنة الخلفاء من سنة الرسول ﷺ، فكذلك سيرتهم من سيرته،

فكانت سيرتهم سنة متبعة في أمور الدين والدنيا كما قال ابن بطال: "ويدل على صحة هذا القول عملُ الخلفاء الراشدين به من بعد الرسول، وأمرهم بتسوية الصفوف بعد الإقامة" (2)، فكانت سنتهم بياناً لسيرة النبي ﷺ وتأكيداً لها وتنزيلاً لمقتضيات الوحي كتاباً وسنة، بما يلائم الوضعَ بعد وفاة رسول الله ﷺ، فَلِسيرتهم ميزة وخصائص لا بد منها لإتمام صورة كمال التنزيل وترسيخ صلاحية الشريعة المستمرة.

وعليه فإن معنى المركب الوصفي للسيرة يمكن تحديد كالآتي:

السيرة هي مجموع المراحل والأحداث والوقائع التي مربها النبي ﷺ والخلفاء الراشدون؛ من مولده ﷺ إلى آخر الخلفاء الراشدين المقتدى بسنتهم.

سواء أضيفت إلى النبي ﷺ **من غير عطف**؛ لأصلتها والتصاقها بحياته أو لطول مدتها إذ غطت ثلاثة وستين سنة، أو باعتبار الأهمية أو الأسبقية، أو استناد ما سواها عليها وأصالتها له؛ فهذه المرحلة النبوية متبوعة لا تابعة، أو عطفت عليها سيرة الخلفاء الراشدين فيكون **عطف بيان وتأكيد**.

المبحث الثاني: أهميتها السيرة في تجسيد السلم والتعايش

لقد شكل السيرة النبوية منعطفاً حضارياً لصناعة السلم العالمي وبناء مقومات التعايش السلمي المتكافئ، فكانت نموذجاً واقعياً وصورة للوحي مجسدة على الأرض الواقع، أي نموذج للمبادئ الكلية والمثل العليا للإسلام، وفي هذا المبحث أحاول الإحاطة ببعضها كالآتي:

أولاً: السيرة نموذج و اقعي.

إن أهمية السيرة معلومة لدى المسلمين بالضرورة، وأكثر من ذلك اهتم بها المؤرخون من غير المسلمين من المستشرقين وغيرهم اهتماماً بالغاً؛ وجعلها المنصفون منهم خير السير وبوؤوا صاحبها خير منزلة، على نحو ما صنع صاحب كتاب **الخالدون مائة أعظمهم رسول الله ﷺ.**

حيث قال: «لقد اخترت محمد ﷺ في أول هذه القائمة ولا بد أن يندهش الكثيرون لهذا الاختيار، ومعهم الحق في ذلك؛ ولكن محمد عليه السلام هو الإنسان الوحيد في التاريخ الذي نجح نجاحاً مطلقاً على المستوى الديني والدنيوي، وهو قد دعا إلى الإسلام ونشره كواحد من أعظم الديانات، وأصبح قائداً سياسياً، وعسكرياً ودينياً، وبعد ثلاث عشرة قرناً من وفاته؛ فإن أثر محمد عليه السلام ما يزال قوياً متجدداً»[3].

وهذه الشهادة دلت على الأهمية التي يوليها المنصفون من العالمين لسيرة خير البرية، فلم يكن تصنيف النبي ﷺ إلا بعد دراسة سيرته والوقوف على أحداثها، ومقارنتها بغيرها من سير العظماء.

((1))- أخرجه ابن حبان في صحيحه: القسم الثالث: النوع السادس.

((2))- شرح صحيح البخاري لابن بطال: 2/ 268.

(3) الخالدون مائة أعظمهم محمد رسول الله ﷺ: 13.

ومن هنا «فإن السيرة النبوية العطرة، كانت على الدوام محلَّ اهتمام الأمة، ولاسيما في القرون الثلاثة الأُوَل؛ لأن صاحب السيرة قمة البشرية، وأسوة الإنسانية، ومحور مسيرتها إلى نهايتها وقد تعلق الصحابة رضوان الله عليهم برسول الله ﷺ تعلقا كبيراً، فاستنارت به جنبات وجودهم ومكونات أفئدتهم»[1].

مما لا شك فيه أن السيرة هي التنزيل الأمثل والواقعي والنموذج العملي للوحي قرآناً وسنةً بمجموع أحداثها ووقائعها ومراحلها، وينضاف إليها قياساً سيرة الخلفاء الراشدين، على اعتبار أن سنتهم تلحق بالسنة النبوية بنص الحديث: "عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين من بعدي.."

فسيرة الخلفاء الراشدين هي النموذج التطبيقي الأول بعد انقطاع الوحي ووفاة النبي ﷺ، وهي تجربة راشدة من أروع التجارب وأفضل النماذج البشرية في صناعة السلم وتطبيق العدل ورعاية التعايش، وحفظ شؤون الرعية أفراداً وجماعات والقيم على مصالحهم حق القيام.

ومن هنا نخلص إلى أهمية السيرة العطرة لرسول الله والخلفاء الراشدين وأثر أحداثها في صناعة الأمن والتعايش والدعوة إليه عبر كل مراحلها، مهما كان حال الأمة من ضعف أو استضعاف أو دعوة وتدافع، أو انتصار وفتح؛ ففي كل هذه التقلبات كانت معالم الدعوة إلى السلم والتعايش واضحة ولها الأولوية على كل ما سواها؛ والوصية بإقامة هذه المعالم والحفاظ على مقوماتها.

ثانياً: في معنى السلم:

والسلم من السلام وهو شعور نفسي وتحقق واقعي، كما قال الراغب: (السِّلْمُ والسَّلَامَةُ: التّعرّي من الآفات الظاهرة والباطنة)(2)، أي هو ما يفضل الإنسان أن يكون عليه في نفسه وأهله وماله وسائر شؤون حياته، من غير ظلم ولا إكراه ولا تعدي عن حريته وكرامته؛ فلا سلم إلا بالشعور بالطمأنينة من غير تهديد ولا ضغط، ولا شعور بخزي أو عار، (وقيل: السِّلْمُ اسم بإزاء حرب، والْإِسْلَامُ: الدّخول في السّلم، وهو أن يسلم كلّ واحد منهما أن يناله من ألم صاحبه، ومصدر أسلمت الشيء إلى فلان: إذا أخرجته إليه)(3).

والحاصل أن السلم هو: الشعور بالأمن الداخلي والاطمئنان الواقعي بين الناس، وهو ما كان معه الإنسان في ترقي ووعي وبناء وسلام، وإنصاف ومساواة، من غير إكراه ولا تعسف، فالسلم صلاح مستدام وصلح لما وقع من الخصومة،

فهو الجنح نحو الاستقرار والأمن النفسي والاجتماعي، مادياً كان أو معنوياً، فالسلم هو ما كان الناس معه في طمأنينة وأمن أقرب إلى السعادة النسبية الممكن تحققها في الدنيا؛ بكل واقعية وموضوعية، لذا جاء التوجيه الإلهي في قوله جل ثناؤه: ﴿**يا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱدۡخُلُواْ فِي ٱلسِّلۡمِ كَآفَّةٗ وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ**﴾ (البقرة: 208).

(1) أعلام السيرة النبوية في القرن الثاني للهجرة؛ للدكتور فاروق حمادة: 1

(2) المفردات في غريب القرآن: 421.

(3) المفردات في غريب القرآن: 423.

والأمن الداخلي يقصد به الانسجام الذاتي بدءاً بالفرد والأسرة والمحيط المصغر إلى المجتمع القطري، والإنسانية عامة. **ويصنع السلم:** بقوة الحكمة، وكياسة الفطنة، والعدالة الاجتماعية، **والاعتزاز بالانتماء للمجتمع، وقوة تطبيق القانون بالعدل والإنصاف**، ولا يصنع السلم الخارجي إلا باستتباب الأمن الداخلي، ووحدة صف المجتمع وتلاحم الشعب والقيادة السياسية العليا الحكيمة والمتبصرة.

وهذا يقتضي التنظيم والالتزام والحكامة والحكمة بغض النظر عن الدينكما وقع في مكة قبل الإسلام عرفت السلم في ظل النظام والالتزام والشعور بنخوة العربي التي تحمله على الحكمة والعدل ونصرة المظلوم والأخذ على يد الظالم كما في حلف الفضول وقبله في فترات مشرقة في المجتمع العربي.

كما قال ضياء العمري «قام قصي بتنظيم مكة فقسم الوظائف والواجبات بين أولاده وهي الحجابة والسقاية والرفادة واللواء والندوة، وكان قصي قد اتخذ لنفسه دار الندوة وجعل بابها إلى مسجد الكعبة ففيها كانت قريش تتشاور في أمور السلم والحرب، وفيها تجري عقود الزواج والمعاملات، فهي دار مشورة، ودار حكومة، يديرها الملأ الذين يمثلون زعماء الأسر وأصحاب الرأي في مكة ويندر أن يقل عمر أحدهم عن سن الأربعين، ويتقيد الناس بأوامر الندوة عادة وعرفاً»[1]، وهذا كله لحفظ الأمن والسلم الداخلي لمكة، وكذلك كان حتى انفرط عقد هذا السلم فطغت الجاهلية واللا سلم واللا تعايش، وشبت نيران القتال والحروب والعنصرية، في بعض فترات شبه الجزيرة العربية.

ثالثاً: في معنى التعايش

والتعايش على وزن تفاعل وهي صيغة دلت على الاشتراك أي لا يقع إلا بين طائفتين أو أكثر؛ كالتحاور أو التعاون كلها تقع بين طرفين أو أكثر، هو من العيش المشترك بين مجموعة من الأجناس المختلفة عرقياً أو دينياً أو لغوياً في أمن وسلام وعدل وإنصاف دون تمييز أو تحيز أو ظلم.

إن الإسلام أسهم بشكل كبير في صناعة السلم العالمي والتعايش بين الناس أكثر من كل ما سواه من الأديان والحضارات، وذلك ماثل في كل مصادره التشريعية ووقائعه التاريخية، ولحظاته الحضارية، وسيرة خير نبي أرسل رحمة للعالمين، والتاريخ يشهد على خير حضارة أخرجت للناس تكريماً للإنسان ورفعاً من مكانته ورد الاعتبار لإنسانيته.

وهذا ملاحظ للعيان دون التباس «إن دراسة الواقع التأريخي لانتشار الإسلام تكشف عن حقيقة اعتناق الناس للإسلام منذ عصر السيرة، وأنه كان يتم في ظروف السلم بنطاق أوسع بكثير من ظروف القتال، فعدد من دخله بعد صلح الحديبية كان أضعاف عدد من دخله قبل الصلح، وكانت البعثات الدعوية في عصر السيرة إلى البوادي تترى رغم الأخطار المحدقة بها، وقد استمر انتشار الإسلام بعد انحسار سلطانه العسكري والسياسي، ومازال يمتد في العصر الحديث؛ فلا شك إذًن في تهافت مقولة إن الإسلام انتشر بالسيف»(2)، فالكيد والافتراء لا يغني من الحق شيئاً، أمام الحقائق الساطعة.

(1) السِّيرةُ النَّبَويَّةُ الصَّحيْحَةُ لأكرم ضياء العمري: 1/ 79- 80.

(2) السِّيرةُ النَّبَويَّةُ الصَّحيْحَةُ لأكرم ضياء العمري: 1/ 79- 80.

المبحث الثالث: معالم منهجية في صناعة السلم والتعايش

إن هذه المعالم تبين الأسس الضرورية التي تعمل على أجرأة السلم والتعايش وجعله واقعاً ملموساً في حياة الناس؛ وذلك أن السيرة بكل مراحلها قبل البعثة وأثناءها وبعدها من الخلفاء الراشدين، شاهدة على تشكيل منهاج قويم لصناعة التعايش واستتباب الأمن والاستقرار اللازم. ولعل أهم هذه المعالم المنهجية هي الشعور بإشراك الآخر في البناء والاستخلاف والتعاون معه على كل خير وبر، ثم إن الإسلام بنى على كل خير سابق وأبدع وأضاف وأسس وصحح واستصلاح كل ما يمكن إصلاحه.

وعليه أتناول ههنا باختصار معلمين من معالم منهاج صناعة السلم والتعايش على سبيل المثال لا الحصر، مَعْلَم إتمام مكارم الأخلاق، ومَعْلَم التعاون على الخير مع كل الناس.

أولاً: مَعْلَم إتمام مكارم الأخلاق

لقد أسهم الإسلام بشكل كبير في صناعة السلم العالمي والتعايش بين الناس أكثر من كل ما سواه من الأديان والحضارات، وذلك ماثل في كل مصادره التشريعية ووقائع التاريخية، ولحظاته الحضارية، وسيرة خير نبي أرسل رحمة للعالمين، والتاريخ يشهد على خير حضارة أخرجت للناس تكريماً للإنسان ورفعاً من مكانته ورد الاعتبار لإنسانيته، كما في الحديث «إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق»[1]،

بمعنى أن النبي أتم ما وجده من الأخلاق الفطرية الحسنة في العرب، وما أدركه من الخصال الحميدة من بقايا الأديان والأعراف الجليلة، وفي ذلك اعتراف بالآخر وإقرار بما لديه من الإيجابي؛ وإشراك له في بناء المشترك الإنساني، ومدح ما هو عليه من الخير والفضل، مما يفتح الباب مشرعاً لقنوات الحوار والتواصل والتعارف والتعاون، وكل هذا تعبيد للطريق لاستتباب الأمن والسلام وبناء جسور السلم والتعايش.

وإن من مكارم الأخلاق وتتميمها نصرة المستضعفين مهما كان دينهم أو جنسهم أو حالهم بناءً لصرح الأخوة الإنسانية العامة، وإقامة لشعائر ديننا الاجتماعية وتشييداً لمعالم عالمية الرحمة المحمدية، إذ من «الأمر المؤكد أنّ قيم الكرامة والحرية والعدل تقتضي من المرء؛ رفض الظلم للآخر بالقدر عينه الذي يرفضه للذات. وهذا يمثّل ركناً ركيناً من أركان (الإنسانية)، التي تحتّم ضرورة الجدّ والاجتهاد؛ بعزم وحزم؛ لرفض الظلم وردع الظالم؛ بكلّ الوسائل الممكنة، (..) وهذا ما عبّر عنه "حلف الفضول"، الذي نهضت به خمسة بطون من قريش لرفع الظلم في بطحاء مكة، كائن من كان الظالم أو المظلوم، عزيز منيع في قومه أو ضعيف فقير، زائر أو مقيم، غريب أو قريب»[2]، وهو حلف الخير والعدل والنصرة ومكارم الأخلاق.

ثانياً: معلم التعاون على الخير مع كل الناس.

إن حديث القرآن عن العمران لا يكون إلا بصفته مشتركاً إنسانياً، وكل ما ينفع الإنسان ويحفظ كرامته هو عمران للكون، يجب التحالف والتكتل والتعاون من أجله، وكل خير مطلوب التعاون عليه، لعموم قوله

(1) أخرجه الهيثمي في كشف الأستار عن زوائد البزار، كتاب علمات النبوة، باب: في حسن الخلق رقم: 2470.

(2) مقال: ثقافة مكارم الأخلاق منهل حلف الفضول بكل قيمه الإنسانية المدهشة لمحمد وردي(مجلة التعايش العدد 11 السنة 2021/12/08.

﴿**وَتَعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان**﴾[المائدة:2]،فالآية بسياقها ومنطوقها ومفهومها توجب على المسلمين التعاون مع الآخر على كل خير؛ ما لم يكن فيه إثم يربو على خيره، خاصة وأن الآية جاءت في سياق رسم معالم التعامل مع المخالف والأمر بالعدل فيهم وعدم ظلمه أو التعدي عنهم ﴿**وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ أَنْ صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَنْ تَعْتَدُوا..**﴾(المائدة: 2)، "فالحكمة ضالة المؤمن يأخذها أينما وجدها". والمتصفح لمراحل السيرة النبوية يجد معالم ذلك بارزة لا تخفى، بل ويوقن أن الحضارة المعاصر في أحوج ما تكون إلى استلهم الدروس والفوائد والفرائد من السيرة العطرة وما تلاها من بصائر مشرقة في تاريخ الأمة. بل وأكثر من ذلك فإن كل الأعطاب الحضارية والمثالب المعاصرة نتيجة لبُعْدِ الإنسان المعاصر عن هدي السيرة وهداها المنهاجي، وبصائرها المعلمة للهدى العام، الذي يهدي الناس إلى خيري الدنيا والآخرة على بصيرة.

فانطمست بصيرة الإنسان المعاصر فـ ﴿**ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي ٱلنَّاسِ**﴾ (الروم: 41)، ظهر فساد الأنفس والأسر والمجتمعات، وبرز فساد المادة والطبيعة والإنسان والسياسة العالمية والبيئة الكونية والاقتصاد والاجتماع، كل ذلك بفساد الفطرة التي فطر الله الناس عليه. مما أدى إلى اشتعال نيران الشهوات والشبهات وانفرط عقد الغرائز؛ واشتد طغيان المادة؛ واندثار الروح؛ وانغلاق مواردها وانطماس منابعها إلا ما رحم الله من الباقية البقية من الغرباء القابضين على الجمر الطاعة لله والولاء لدينه. فصارت الأمم المتغلبة لا تعبأ بالروح ولا تقيم لها وزناً؛ بل كانت معولاً لمقوماتها، فماتت الإنسانية في أجواف أبدانها، فطبيعي أن يتولد الصراع والحروب والعنصرية والطغيان والظلم والأنانية المفرطة.

وفي زحمة هذا كله لا نعدم خيراً من فضلاء العالم وعقلائه؛ ولا ننفض أيدينا من الناس جميعاً بل لا بد من البحث عن أهل الفطرة شرفاء الإنسانية؛ القابضين على الجمر مثلنا؛ جمر هَمِّ إقامة الحق والعدل والدعوة إليه، من سائر الأمم والأديان والحضارات. بل حتى مما خلطوا عملا صالحا وآخر سيئاً؛ نتعاون معهم في خيرهم وصلاحهم ونترك شرهم وفسادهم، ما لم يؤدِّ التعاون معهم إلى شر أو فساد أو ظلم أو تعدٍ أو فوات أحد مقومات ديننا أو هويتنا أو ثقافتنا.

المبحث الرابع: معالم تجسيد السلم والتعايش في الواقع

فالوحي أمر بالقيم العليا والمبادئ المثلى والسيرة النبوية جسدتها على الأرض بكل واقعية وعدل وإنصاف، لتدل على إمكانية تنزيله وتمثله، ولا يراه الناظر إليه ويعتقد صعوبة إمكانية تشخيصه على الأعيان، أو يظن أنها مبادئ ملائكية لا قبل للإنسان بها. ثم لإدراك ما في مقدور الإنسان وما هو خارج عن طوقه وقدرته، فالسيرة النبوية والخلافة الراشدة يبينان حدود الإمكان، وآليات تنزيله في الواقع؛ وسنية الاقتداء والتأسي بالنموذج الأمثل والأسوة الحسنة في سيرته مع أصحابه وسيرة خلفائه مع رعيتهم، وليس مطلوباً ممن جاء بعدهم أكثر مما طلب منهم.

فالسيرة النبوية نموذج للعدل والرحمة والاستقامة ومكارم الأخلاق كلِّها، فاشتملت على كل معالم وصوى وبصائر بناء السلم الاجتماعي والتعايش بين الناس، وأكدت عليه بمجموعة من المؤكدات. حتى

صارت هذه المعالم جزء من كمال الإيمان، ولا تكتمل عقيدة المؤمن إلا باتباعها ومن استقرأ آي التنزيل وأحاديث السنة النبوية، وأحداث السيرة العطرة، يجد أن ركائز التعايش واضحة المعالم بينة الأسس، رسخ النبي ﷺ مقوماتها وشيد بنيانها بلبنات غاية بالدقة والصلابة والرسوخ والوضوح.

المعلم الأول: بناء الأمن الداخلي

إن الأمن الداخلي الذي هو أول مقوم من مقومات السلم الاجتماعي لا يقدر على صناعته إلا الدين الصحيح، باعتباره فطرة تملأ على الإنسان كيانه ووجدانه، وتعطيه طاقة من العمل من أجل إسعاد ذاته والآخرين من حوله. وخير ما يصنع هذا الأمن الداخلي لأفراد والمجتمع هو الانطلاق من قول جل ثناؤه: ﴿**إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم**﴾(الرعد 11) هي آية ومعلم أساس في صناعة الأمن الداخلي والسلم العالمي. ولقد ضربت الفترة المكية أروع الأمثلة في بناء شخصية الإنسان واتخاذ هذه الآية شعاراً ودثاراً في الآن نفسه في تكون المسلم وتمتين أخلاقه، فكانت مرفأ للأمن الداخلي ونوراً في بناء لبنات السلم الاجتماعي. **ولقد بلغ أذى قريش** للنبي ﷺ وأصحابه ما بلغ؛ من الأذى المادي والمعنوي الجسدي والروحي، من تعذيب وتجويع وإهانة وإذلال، وتبخيس لدينهم ومعتقدهم والطعن في صدق نبيهم الكريم؛ وحُصِروا في الشعب ثلاث سنوات، وقتل منهم من قتل، حتى قال بعضهم يا رسول الله ألا تنتصر لنا، فيقول إني لم أومر بقتال أو هجرة.

فكانت هذه الفترة مصنعاً لقيم الصبر والتضحية وعلو الهمة والتوحيد والإخلاص، وخلو النفس مما سوى الله، والعدل والاستقامة والجود والكرم والإنفاق في سبيل الله والتضامن المطلق. فما نزل من القرآن المكي يشكل كليات كبرى ومبادئ عظمى وقضايا أساسية في صناعة السلم العالمي والتأسيس للأمن وبناء مقومات التعايش في الأنفس ابتداءً، فكان التركيز في القرآن المكي على البناء المتين والتي فصلها العلماء في كليات يمكن صياغتها كالآتي:

- **كليات عقدية لتزكية الأنفس وإخلاص العبادة لله.**
- **كليات أخلاقية لإتمام مكارم الأخلاق ورسم معالم الاستقامة**
- **كليات تعبدية لترسيخ إسداء المعروف وبناء معاني القوة والشهامة**

فدعا ما نزل بمكة إلى التوحيد الخالص الذي يزكي الأنفس ويعلي همتها ويُعِدُّها لبناء حضارة إنسانية رائدة ترتكز على العدل والمساواة، والصبر والتضحية حتى النصر والتمكين لقيادة العالم نحو تجسيد الرحمة التي بعث بها نبينا الأكرم للعالمين. فالسيرة النبوية جسدت التوجيهات القرآنية على أرض الواقع بترسيخ أصول مكارم الأخلاق وتميمها: تعديلاً وتصويباً وإضافة وإحياء ما اندثر منها مما لا بد منه للإنسان.

المعلم الثاني: مقومات بناء التعايش

من المعلوم أن الإسلام منظومة متكاملة من حيث البناء والتشريع والعموم والشمول؛ فهو نظام شامل كامل منفتح؛ فالقرآن والسنة وما تجسد منهما في السيرة النبوية والخلافة الراشدة انبثقت عنه المقاصد الشرعية التي هي منظومة متكاملة أيضاً ونسق كلي غاية في الدقة والاستدلال، إذ هي روح الشريعة، والثمرة

المرجوة من أحكامها، وبها ينضبط الواقع ويصلح أمر الخاص والعام، وبمقتضاها تواكب الشريعة المستجدات؛ وتجيب على كل الإشكالات، كما تعمل على تحديث الفكر؛ وتطوير آليات التقدم؛ وتخليق الحداثة؛ وتنفخ روح الإنسانية في الحضارة.

وفي ظل هذه المعطيات كلها التي تقوم بها المقاصد تأتي أهمية بناء قيم التعايش، فيما تتيحه المقاصد من إمكانيات حضارية هائلة لتحقيق نموذج تعايش الاجتماع الإنساني المعاصر، وفق منظومة من القيم تُسهم في بناء حضارة ذات مرتكز إنساني. ومن هنا فإن التعايش ليس كلمة تَلُوكُها الألسن للتغني بها أو للترفُّه الثقافي؛ أو الترف الفكري، وإنما هو منظومة من القيم والمبادئ والأخلاق العالية، التي يجب رعايتها بشكل مشترك بين كل المتدخلين المعنيّن، كلٌ حسب تخصصه ودائرة اهتمامه، وعليه فإن هذه المنظومة في حاجة ماسة إلى روح المقاصد فهماً لمبادئ الإسلام وأصوله وسيرة نبيه وخلفائه الراشدين؛ وتنزيلاً لمقتضى النموذج بما يتلاءم مع مقتضى العصر من غير إخلال بهدى الوحي ومنهاج السيرة النبوية: **فهماً:** باستيعاب التراث الديني والإنساني انطلاقاً من استثمار الوحي الخاتم خاصة، وناصع الرسالات السماوية السابقة، وما تميز به العقل الإنساني من إشراقات منيرة وبصائر مضيئة؛ وما راكم من إنجازات عبر تاريخه الفلسفي الطويل. **وتنزيلاً:** وفق استراتيجية غاية في الدقة، من تنشئة الأجيال عليها في كل الأطوار التعليمية، وبثها في الوسط الأسري، وجعلها ثقافة سارية في المجتمع كله عبر كل الآليات الممكنة كالإعلام والمنشآت الثقافية والمهنية؛ والمسارح الفنية...

والشاهد هو بيان أهمية المقاصد في التأسيس لمنظومة متكاملة لتوطيد قيم التعايش السلمي المنشود؛ حتى يكون مبنياً على قواعد صلبة؛ نستطيع من خلالها الإقلاع بنموذج الاجتماع الإنساني المعاصر المتعايش، لأجل تحقيق روح الإنسانية فيه، ومبادئ الأخلاق الحضارية، من التعارف والتسامح والتفاهم والتعاون الأمثل على أحسن نموذج ممكن، بكل واقعية، وغيرها من القيم التي تعد من أهم مقومات منظومة التعايش الإنساني.

المبحث الخامس: نماذج بناء السلم الاجتماعي من خلال السيرة العطرة

وهنا نورد باختصار نموذجاً من السيرة العطرة التي تعد منارات هداية وإرشاد، وأسست بكل وضوح للسلم العالمي والتعايش بين مختلف الأجناس والأديان؛ وذلك بعد الاعتراف بما لدى الآخر من الخيرية، وبيان أن النبي بعث للإتمام والإكمال والتزكية والهداية والإرشاد وإسماع الناس كلمة الله الحق والدفاع عن العدل والحرية وترك للناس الاختيار من غير إكراه ولا تعسف ولا إلغاء لإرادتهم وما شاؤوا لأنفسهم.

وهذه الهدايات لها منارات ثلاث؛ مرحلة **الاستضعاف**، ومرحلة **التدافع والبناء**، ومرحلة **القوة والقيادة** فهذه ثلاث مراحل التي مرت منها السيرة العطرة بكل أحداثها ووقائعها منذ البعثة أساساً إلى آخر الخلفاء الراشدين، تعد نموذجاً يحتدى ومنهاجاً يقتدى به في بناء السلم وتحقيق التعايش.

أولا: مرحلة الضعف والاستضعاف

وهي المرحلة المكية التي مرت فيها الدعوة السرية والجهرية وما عناه النبي وأصحابه من التعذيب والتنكيل والحصار والمقاطعة والتقتيل والتشريد والتهجير من الوطن وغيرها من ألوان الأذى والاستضعاف.

ثانيا: بداية البعثة و انبثاق الدعوة

مما لا ضير فيه أن تعرف الدعوة إزاء انبثاقها ومولدها ضعف الولادة وألم المخاض وعسر التأقلم مع الواقع وتحدياته، ومن هنا كانت الدعوة السرية لتشكيل نواة الإسلام وأسس الإيمان ودعوة الفضلاء والعقلاء الحكماء والأقارب بالحكمة والموعظة الحسنة، من غير اصطدام ولا جدال ولا إعلان عام؛ وهي مرحلة ضعف واستكشاف وبحث عن المصطفين الأخيار، كما أنها مرحلة سر وكتمان.

فـ«كان رسول الله ﷺ في هذه الفترة يجتمع بالمؤمنين سرا في دار الأرقم بن أبي الأرقم الذي دخل في الإسلام أيضا، وكان الرسول يتلو عليهم ما ينزل عليه من آيات القرآن الكريم، ويعلمهم من أحكام الدين وشرائعه ما كان ينزل حينئذ»[1]، وهي فترة إخبار بأمر الإسلام وإعلام بأسسه الكبرى ومبادئه وتعليم لأحكامه الأولى.

«وكان الأرقم رضي الله عنه- من السابقين الأولين كما رأيت، وكانت داره منتدى يجتمع فيه المسلمون، ويعبدون الله سرا، ويلقنهم النبي ﷺ الإسلام وأصوله، ويتعهّدهم بالتربية حتى كوّن منهم أناسا يستهينون بكل الآلام والبلاء في سبيل دينهم وعقيدتهم، وكان من يريد الإسلام يأتي إليها مستخفيا خشية أن يناله أذى قريش، وكانت هذه الدار عند الصفا»[2].

فكانت دار الأرقم بن أبي الأرقم وعاء للدعوة ومصنعاً للرجال وشحنهم بمكارم الأخلاق ومبادئ الحرية والانعتاق، وجعل من أنفسهم معدناً للحكمة والتبصر والصلاح والإصلاح؛ على وفق من برنامج تربوي غاية في الدقة والرقي والنبل؛ وسلامة الصدر تجاه كل الناس والشفقة عليهم.

ورغم هذا الوضع الاستثنائي في الدعوة الأولى، فإنه لم يسجل عن الدين الجديد وأتباعه المؤمنون به، أي لحظة من العنف أو الدعوة إلى الظلم أو الاعتداء، بل لم تسجل حتى فلتة من فلتات الأفراد، وإنما كانت الحكمة والرزانة والتروي والأناة هي النهج السائد، مستعينين على ذلك بالصبر والإيمان والإخلاص والامتثال لتعاليم الصادق الأمين نبي الرحمة المهداة والنعمة المسداة، فكانت مرحلة سلم وسلامة وأمن وأمان.

ثالثا: فترة الاستضعاف وتدبيرها بالصبر والحكمة

وهي مرحلة الإعلان عن الإسلام لعموم الناس؛ بدأت بأمر النبي ﷺ بالصدع بالدعوة والجهر بها لكل الناس؛ ومعلوم ما لقيه به أحد صناديد قريش من الفضاضة والغلظة وقسوة القلب والتهجم عليه بقوله: تباً لك ألهذا جمعتنا؛ وكان رد القرآن أحسن رد وأجمل اعتبار دافع به الله عن رسوله الكريم.فعندما أمر الرسول بالجهر بالدعوة لقي ما لقي من المعارضة والاستنكاف والإهانة والاستضعاف له ولأصحابه ومؤيده

(1) السيرة النبوية؛ لمصطفى السباعي: 47.

(2) المرجع نفسه: 47.

ومناصريه من أهله وعشيرته التي تأويه، ما هو معلوم لا أطيل به؛ وإنما يكفي من القلادة ما أحاط بالعنق، خاصة في تشخيص ماضٍ يكاد يكون معلوما من العلم بالضرورة.

وإنما كان إعلان مبدأ الحرية كما في الحديث «ماذا عليهم لو خلوا بيني وبين سائر الناس، فإن أصابوني كان الذي أرادوا، وإن أظهرني الله عليهم دخلوا في الإسلام وهم وافرون»[1]

مثلثْ مرحلة الضعف والاستضعاف دعوة إلى الإسلام والسلام والإيمان والأمن، والمرحلة المكية كلها ليس فيها إذن بأي نوع من أنواع الدفاع على النفس أو دفع الأذى الذي يسلط على النبي ﷺ ومريدي دينه والمؤمنين به؛ وإنما كانت مرحلة بناء الأمن الداخلي للأفراد وإعداد قادة السلم الاجتماعي بامتياز، عمادهم الإيمان والإخلاص والصبر والتضحية بالغالي والنفيس لأجل الإسلام ونصرة نبي الرحمة؛ مع حسن التأسي وكامل الانقياد لرسول الله انقياداً تاماً.

رابعا: مرحلة التدافع والبناء

وهي مرحلة الدفاع عن الكرامة والحرية، وتمتد من الهجرة إلى المدينة المنورة إلى فتح مكة ودخول الناس في دين الله أفواجاً، وشكلت هذه المرحلة أروع الأمثلة في صناعة السلم وتوطيد أركانه ومقوماته؛ وبث التعايش والتأسيس لقواعده عبر وثيقة مكتوبة تحوي بنوداً متفق عليها بشروط تنص على الحقوق والواجبات لكل أطياف المجتمع وبسائل مكوناته الدينية والثقافية والاقتصادية والسياسية مما أدى إلى أفضل نموذج للتعايش على الإطلاق. ولو نحن حاولنا استذكار بعض القضايا الأكثر إشراقاً وأبرزها، لوجدنا من أساسية ذلك نماذج منها المؤالفة بين الأوس والخزرج وتوحيد صفهم وجمع كلمتهم بالتأليف بين قلوبهم.

ثم المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار؛ وتوج ذلك بوثيقة المدينة التي تنص على حقوق وواجبات مواطني المدينة؛ ووضع حد لكل الصراعات والعنصرية ودعوة الجاهلية، وكل ما يمت بصلة إلى العنف المادي أو المعنوي الفردي أو الجماعي فهو تأسيس معقلن صريح واضح؛ حتى قيل أول دستور في العالم وهو «الكتاب الذي عقد فيه الرسول ﷺ الأخوة بين المهاجرين والأنصار، والتعاون بين المسلمين وغيرهم، جملة من الأدلة التي لا ترَدّ على أن أساس الدولة الإسلامية قائم على العدالة الاجتماعية، وأن أساس العلائق بين المسلمين وغيرهم هو السلم ما سالموا، وأن مبدأ الحق والعدل والتعاون على البر والتقوى والعمل لخير الناس، ودفع أذى الأشرار عن المجتمع، هو أبرز الشعارات التي تنادي بها دولة الإسلام»[2]. وكان الإسلام بكل مبادئه وأحكام وشرائعه وتشريعاته لخدمة هذه الأسس الاجتماعية النبيلة، فكان أول ما أسسه النبي ﷺ هو بناء المسجد لإتمام عمارة الروح وبناء النظام الاجتماعي المتماسك وعقيدة التسامح والتعايش؛ من غير تماهي ولا تساهل وإنما وفق دستور يحفظ الحقوق والواجبات لكل الأطراف من غير إكراه ولا تعسف ولا ظلم؛ دستور يحفظ الحرية للجميع بشكل متكافئ في أدق أوجه وأرقى تجلياته. ولقد ضرب أروع الأمثلة في التسامح

(1) أخرجه أحمد في مسنده من حديث: الْمِسْوَرِ بْنِ مَخْرَمَةَ وَمَرْوَانَ بْنِ الْحَكَمِ: رقم: 18910.

(2) السيرة النبوية؛ السباعي: 76.

الديني؛ وفي أوج القوة والقيادة والريادة فـ«لم يكن النبي ﷺ يشترط على أحد من يهود أن يدخل في الإسلام مقابل بقائه في المدينة المنورة بل إن نصوص المعاهدة تؤكد إعطاء اليهود حريتهم الدينية في المدينة المنورة»[1].

ومن هنا كان التركيز على بناء الإنسان وإعادة تشكيل ثقافته على أهدى السَّنَن «فجاء الإسلام بأسس جديدة هي وحدها الأسس الحميدة في تقويم الإنسان، وكانت حياة الرقيق والمستعبدين والأسرى لا تطاق، فجاء الإسلام برحمته الشاملة، ففتح الباب لتحرير الرقيق، ووضع الأساس لحسن التعامل مع الأسير»[2].

ثم إن الإسلام دافع عن الأمن والسلم بالقوة؛ ضد من أراض تقوض التعايش والسطو على الحرية واستبعاد الناس؛ فدافع بكل قوة لرد المظالم إلى أهلها والدفاع عن حوزة أهله ومن دخل معهم في حلف من أهل الكتاب وغيرهم. ومن هنا انبثق الجهاد والقتال في الإسلام في أروع صوره وبأقل الخسائر الممكنة؛ وإنما كان القتال: دفاعاً عن النفس بصد العدو، أو مناصرة المستضعفين؛ أو رد المظالم إلى أهلها ودفع الظالم أياً كان، أو دفاعاً عن الحرية والانعتاق والكرامة الإنسانية وطرد الاستعباد الفكري والاجتماعي والثقافي والسياسي؛ وسائر أنواع الظلم.

والمتفحص بعين مبصرة وقلب سالم وعقل منصف يعلم يقيناً أن كل الغزوات والسرايا كانت أجل تحقيق أهداف استراتيجية غاية في العدل والإنصاف؛ ولم تكن يوماً ظلماً أو عدواناً أو تسلطاً؛ وإنما كانت دفاعاً عن الحوزة والثقافة والعقيدة والحرية ضد الاعتداء أو الإكراه أو الاستعباد. وخير دليل التوجيه القرآن الدال على نزاهة القتال من الاعتداء أو السطو بل وأكدت توجيهات القرآن وإرشاداته على ضرورة التخلق بمكارم الأخلاق أثناء الحرب وبعده، وأكد على قبول الصلح والسلم ما جنح العدو له. كما في صريح الوحي ﴿**وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلۡمِ فَٱجۡنَحۡ لَهَا وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ**﴾(الأنفال: 61)، فالإسلام لا يعشق القتال أو الحروب؛ وإنما يظهر قوته حتى لا يطمع فيه؛ ويهون على الناس تسور حرماته، أو الاعتداء على أهله وحلفائه؛ أو خنق حريات تبليغه للناس.

وإنما يكون التخويف حتى لا يقع القتال وسفك الدماء؛ فإذا علم العدو قوتك وعدتك لا يتجرأ على استفزازك أو محاولة الاعتداء عليك، وفي خضم هذا جاء التوجيه القرآني؛ كما في قوله تعالى: ﴿**وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن قُوَّةٖ وَمِن رِّبَاطِ ٱلۡخَيۡلِ تُرۡهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمۡ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمۡ لَا تَعۡلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعۡلَمُهُمۡۚ**﴾(الأنفال: 60)؛ فهو إعداد لتكون الدولة مهابة، لذا قدم الأمر بالسلم على الإعداد، فكانت القوة والإعداد لأجل السلم والأمان لا من أجل الحرب والقتال؛ كما في قول الله تعالى: ﴿**ٱلَّذِينَ عَٰهَدتَّ مِنۡهُمۡ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهۡدَهُمۡ فِي كُلِّ مَرَّةٖ وَهُمۡ لَا يَتَّقُونَ ٥٦ فَإِمَّا تَثۡقَفَنَّهُمۡ فِي ٱلۡحَرۡبِ فَشَرِّدۡ بِهِم مَّنۡ خَلۡفَهُمۡ لَعَلَّهُمۡ يَذَّكَّرُونَ ٥٧**﴾(الأنفال: 56-57)

بل وأمر بإنهاء القتال عن الغلبة والتمكن من العدو وأمر بالأسر بدل مواصلة القتال حتى لا يستحر القتل بمن استسلم وخارت قواه فقال تعالى: ﴿**حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثۡخَنتُمُوهُمۡ فَشُدُّواْ ٱلۡوَثَاقَ فَإِمَّا مَنَّۢا بَعۡدُ وَإِمَّا فِدَآءً**

(1) السيرة النبوية الصحيحة محاولة لتطبيق قواعد المحدثين في نقد روايات السيرة النبوية؛ أكرم ضياء العمري: 1/ 300.

(2) الأساس في السنة وفقهها السيرة النبوية، سعيد حوى: 1/ 127.

﴿حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلۡحَرۡبُ أَوۡزَارَهَا﴾ (محمد:4)أي لا تواصل القتال بعد الإثخان فيهم واستسلامهم، بل الأسر أرحم لهم. «ومن وصايا رسول اللهﷺ للجيش الإسلامي في "غزوة مؤتة" تلمس طابع الرحمة الإنسانية في قتال الإسلام، فهو لا يقتل من لا يقاتل، ولا يخرب ما يجده في طريقه إلا لضرورة ماسة، وقد التزم أصحابه من بعده والمسلمون في مختلف العصور بعد ذلك هذه الوصايا، فكانت حروبهم أرحم حروب عرفها التاريخ، وكانوا هم محاربون أدمث أخلاقاً، وأشد رحمة من غيرهم وهم مسالمون، والتاريخ قد سجل للمسلمين صفحات بيضاء في هذا الشأن، كما سجل لغيرهم صفحات سوداء»[1].

والحاصل أن الفرق كبير بين الحضارة النبوية المحمدية وغيرها من الحضارات التي أثخنت في الإنسانية بكل أنواع التقتيل والتنكيل والكيد «ليتبين للقارئ فرق ما بين الأخلاق المحمدية، وسياساته الحكيمة الرشيدة في السلم، والحرب، ومع الأصدقاء، ومع الأعداء، وما بين أخلاق غيره، وسياسته ومعاملته لأصحابه، ولأعدائه، مهما بلغ ذلك الغير من العقل، والعلم، والكياسة، والسياسة، والقيادة، والعدل، والرحمة؛ لكي أخلص من ذلك إلى الفرق البعيد ما بين النبوة، وغير النبوة، والبشر الرسول، وغير الرسول»[2]. وإذا نحن حاولنا القفز على كثير من النماذج التي هي غاية في الوضوح؛ وانتخاب نموذج صلح الحديبية وما فيه من الدلالات والعبر في ترسيخ قواعد السلم وقبول الآخر وإبداء الرغبة في التعايش معه على الحد أدنى من احترام قواعد العيش المشترك؛ يجد الشيء الكثير، أذكر نموذج على سبيل المثال كما قال المباركفوري:

- وضع الحرب بين الطرفين عشر سنين، يأمن فيها الناس، ويكف بعضهم عن بعض.
- من أحب أن يدخل في عقد محمد وعهده دخل فيه، ومن أحب أن يدخل في عقد قريش وعهدهم دخل فيه، وتعتبر القبيلة التي تنضم إلى أي الفريقين جزآ من ذلك الفريق، فأي عدو أن تتعرض له أي من هذه القبائل يعتبر عدوانا على ذلك الفريق.
- من أتى محمدا من قريش من غير إذن وليه- أي هاربا منهم- رده عليهم، ومن جاء قريشا ممن مع محمد-أي هاربا منه- لم يرد عليه»[3].

وهي بنود غاية في الاستعداد للسلم والتعايش المتبادل بين الشعوب؛ ومؤسسة لحقيقة الدعوة الجادة لأجل بث الأمن والسلام المنشود في العالم كله. فكانت المرحلة المدنية مرحلة بناء وتدافع من أجل إحقاق الحق ونشر العدل ومنع الظلم والتعدي؛ بأقرب الوسائل الممكنة إلى التي هي أحسن بأقل الخسائر الممكنة، في الحرب والسلم؛ في القوة والتدافع والبناء والتشييد؛ فجسدت السيرة خير نموذج للسلم العالمي العقلاني وللتعايش المتكافئ.

(1) السيرة النبوية، مصطفى السباعي: 122.

(2) السيرة النبوية على ضوء الكتاب والسنة؛ لابن سويلم أبي شُهْبة: 1/ 16.

(3) الرحيق المختوم: 313.

خامسا: مرحلة القوة والقيادة

هذه المرحلة تمثل قيادة العالم وتجسيد الرحمة الشاملة للناس جميعاً والتي بلغ فيها الإسلام أوج قوته فكانت الكلمة النبوية الخالدة يوم فتح مكة: **اذهبوا فأنتم الطلقاء** من غير انتقام وثأر ولا عتاب ولا شرط أتباعه ولا الدخول في دينه، بل وهو عفو عام شامل تجسدت به قيم الوفاء والرحمة والعطف والحنان والشفقة على كل الناس؛ مهما كان موقفهم السابق منه ﷺ ومن أصحابه ودعوته.

وفي تقديري تبتدئ هذه المرحلة بصلح الحديبية مروراً بفتح مكة والرسائل التي أوفدها النبي ﷺ إلى عظماء الروم والفرس والنجاشي ثم حجة الوداع وما فيها وما فيها من الوصايا والمبادئ المؤسسة والقيم النبيلة ومكارم الأخلاق؛ وما مثلته من الدعوة الجادة للانخراط في السلم والتعايش المتكافئ، وتمتد هذه المرحلة إلى سيرة الخلفاء الراشدين وما مثلته من تطبيق لميراث النبوة في شتى مناحي الحياة والبناء الحضاري الذي مثل أروع النماذج في الرحمة المحمدية، ولولا خشية الإطالة لسجلت مجموعة المواقف التي عرفتها السيرة العطرة وأسهمت بها في ترشيد الحضارة والرقي بإنسانية الإنسان إلى أرفع المراقي وأجل المقامات. وإن المطلع على صحيح سيرة الخلفاء الراشدين في العدل والنزاهة والورع والتقوى، وما حققوه من العطاء الحضاري لينبهر لنبل سيرته في البشرية جمعاء، وإن هذا ليشهد له الأعداء قبل الأصدقاء.

فإن تحدثت عن صدق أبي بكر ونزاهته وحنكته حدث ولا حرج، أو عن عدل عمر وإنصافه وقوة اجتهاده وجرأته في الحق فليس له مثيل، أو عن عثمان العبقري الكبير القائد الملهم، أو عن علي باب العلم والتقوى والنزاهة والحنكة والشجاعة فليس له نظر؛ أو عن اللحظات المشرق في تاريخ الإسلام كعمر بن عبد العزيز ونظائره؛ الذين برهنوا أن بانحطاط المسلمين وتخلفهم خسر العالم الشيء الكثير خسر روح التعايش والأمن والاستقرار على جميع الأصعدة.

خاتمة:

وفي الختام يمكن القول إن الحضارة المعاصرة اليوم في حاجة ماسة إلى قيم الإسلام ومبادئه الإنسانية التي تجسدت في السيرة النبوية والخلافة الراشدة، وأبطلت دعوى كل مغرض من المستشرقين وغيرهم، وقطعت دابر إفكهم وبهتانهم؛ في دعوى عدم واقعية الإسلام أو حصر صلاحيته في ظرف نزوله أو في المخاطب به ابتداءً؛ دون غيرهم، فكل هذا فندته السيرة العطرة بما جسدت من وقائع قيم العدل والكرامة والمساواة ونشر ثقافة التعايش والسلم والتسامح خير تنزل بكل واقعية ومسؤولية، وإن كنتُ في هذه المشاركة اقتصرت على نموذج السلم والتعايش، فإن السيرة الغراء نموذج يحتذى به في كل المجالات؛ فهي مليئة بالملهمات.

ولعل حسرة اندحار المسلمين وتخلفهم عبر عنها بكل حسرة صاحب كتاب: **ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين**، والحق أن العالم خسر روحه وماتت الإنسانية فيه واختنق التعايش بين الناس وحل الإكراه والتعسف والاستعباد؛ واسترقاق القوي للضعيف واستحواذ الدول الغنية على الفقيرة؛ ثقافياً واقتصادياً وسياسياً بل وعسكريّاً، فكان انحطاط المسلمين وبالاً ليس على المسلمين فقط بل على الإنسانية كلها.

إن الحضارة الإسلامية أسست لمبادئ التعايش السلمي المتكافئ؛ من غير إدلال ولا إملاء ولا تعسف وإكراه؛ بل أكدت على أهمية الاختلاف وحرية الاختيار والتعدد والتنوع الذي يضفي على الحياة العامة جمالاً وقدسية روحية ويعطيها فاعلية نحو البناء والعمران المتوازن؛ إذ الاختلاف الثقافي واحترام الخصوصية من أهم ما يعطي للحياة معنى ويجعل الغاية فيها نبيلة مرغوبة. بهذا نكون قد حاولنا الإسهام في بيان بعض المعالم والصوى التي تشكل إلهاماً للحضارة المعاصرة في صناعة التآخي الإنساني، والتعايش السلمي العالمي المتكافئ ليعيش الإنسان رفاهية الروح وعمران الوجدان وازدهار الحياة المادية والصناعية والاقتصادية من داخل السلم الاجتماعي العام؛ وفق قواعد وقوانين معاصرة تضمن الحقوق وتمنع الظلم وتمتاز بالإنصاف والتكافل بين الأمم والشعوب.

لائحة المصادر والمراجع

- القرآن الكريم
- أساس البلاغة؛ أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد، الزمخشري جار الله (ت 538هـ)، تحقيق: محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، الطبعة الأولى: 1419 هـ - 1998م.
- الأساس في السنة وفقهها - السيرة النبوية، سعيد حوّى (ت: 1409 هـ)، دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة، الطبعة: الطبعة الثالثة، 1416 هـ/1995م.
- أعلام السيرة النبوية في القرن الثاني للهجرة؛ فاروق بن محمود بن حسن حمادة، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف بالمدينة المنورة.
- الخالدون مائة أعظمهم محمد رسول الله ﷺ
- الرحيق المختوم؛ صفي الرحمن المباركفوري (ت: 1427هـ)، دار الهلال - بيروت (نفس طبعة وترقيم دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع)، الطبعة: الأولى: 1431هـ
- السِّيرةُ النَّبَويَّةُ الصَّحيْحَةُ مُحَاوَلَةٌ لِتَطبِيْقِ قَوَاعِدِ المُحَدِّثِيْنَ فِيْ نَقْدِ رِوَايَاتِ السِّيْرَةِ النَّبَويَّةِ، أكرم ضياء العمري، مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة، الطبعة: السادسة، 1415 هـ - 1994م.
- السيرة النبوية دروس وعبر؛ مصطفى بن حسني السباعي (ت: 1384هـ)، المكتب الإسلامي، الطبعة الثالثة: 1405هـ/ 1985م
- السيرة النبوية على ضوء القرآن والسنة؛ محمد بن محمد بن سويلم أبو شُهبة (ت:1403هـ)، دار القلم – دمشق، الطبعة: الثامنة - 1428هـ
- شرح صحيح البخاري لابن بطال؛ ابن بطال أبو الحسن علي بن خلف بن عبد الملك (ت: 449هـ)، تحقيق: أبو تميم ياسر بن إبراهيم، دار النشر: مكتبة الرشد - السعودية، الرياض، الطبعة الثانية: 1423هـ/ 2003م.
- صحيح ابن حبان: المسند الصحيح على التقاسيم والأنواع من غير وجود قطع في سندها ولا ثبوت جرح في ناقليها؛ أبو حاتم محمد بن حبان بن أحمد التميمي البُستي (ت 354 هـ)، تحقيق محمد علي سونمز، خالص آي دمير، دار ابن حزم – بيروت، الطبعة الأولى: 1433 هـ/ 2016 م.
- كشف الأستار عن زوائد البزار؛ نور الدين علي بن أبي بكر بن سليمان الهيثمي (ت 807هـ) تحقيق: حبيب الرحمن الأعظمي، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الأولى: 1399هـ/ 1979 م.
- مسند الإمام أحمد بن حنبل؛ الإمام أحمد بن حنبل (164 - 241 هـ)، تحقيق: شعيب الأرنؤوط - عادل مرشد، وآخرون، مؤسسة الرسالة، الطبعة: الأولى، 1421هـ/ 2001م.
- معجم مقاييس اللغة، أحمد بن فارس بن زكرياء القزويني الرازي، أبو الحسين (ت 395هـ)، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، دار الفكر، طبعة: 1399هـ - 1989م..

- المغازي؛ محمد بن عمر بن واقد السهمي الأسلمي بالولاء، المدني، أبو عبد الله، الواقدي (ت 208هـ)، تحقيق: مارسدن جونس، دار الأعلمي– بيروت، الطبعة: الثالثة - 1979/1409م..
- المفردات في غريب القرآن؛ أبو القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهاني (ت 503هـ)، تحقيق: صفوان عدنان الداودي، دار القلم، الدار الشامية - دمشق بيروت، الطبعة الأولى: 1412هـ

مراعاة النبي صلى الله عليه وسلم لو اقع المدعوين

الدكتورعبد العزيز أوتكوميت
أستاذ مادة التربية الإسلامية
مكناس، المغرب

مقدمة:

فقه السيرة النبوية لا يقل أهمية عن فقه القرآن الكريم، وفقه الحديث الشريف، وغيرها من أنواع الفقه، التي لا ريادة للأمَّة إلاَّ بالانخراط في فقه علومها، وترجمتها إلى واقعها كشرط لنهضتها وتحقيق رسالتها، وعدم الاكتفاء بالسرد التاريخي لعلومها دون استقرائها وفهم حِكمها وغاياتها ومقاصدها.

وهو يمدنا بأنواعٍ كثيرة من الفقه نستنبطها منها، ومن تلكم الأنواع فقه واقع المدعوين، بما هو صلى الله عليه وسلم داعية إلى ربّه، قال تعالى: [يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا][الأحزاب:46]. وفي هذا الإطار تندرج هذه المقالة (مراعاة النبي صلى الله عليه وسلم لواقع المدعوين)، والهدف منها تنبيه الدعاة إلى الله بواجب مراعاة هذا الفقه حتى تثمر الدعوة، والمسلم من أي موقع كان داعية إلى ربه بحسب حاله واستطاعته. ولتسليط الضوء على هذا الفقه في السيرة النبوية، أتناوله من خلال النقط الآتية:

1. شرح المصطلحين الأساسيين: الواقع - المدعوين.
2. أهمية العناية بالواقع عموماً.
3. أهمية العناية بواقع المدعوين خصوصاً.
4. أهمية العناية بالسيرة في معرفة تعامل صاحب الرسالة مع المدعوين.
5. أمثلة لعناية النبي ﷺ بواقع المدعوين، واوجه الاستفادة منها في واقع الدعوة اليوم.

ومن الله نستمد العون والتوفيق.

أولاً: شرح المصطلحين الأساسيين.

نعرِّف بمصطلحي: الواقع – المدعوين، ثم نعرِّج ببيان المراد من عنوان المقالة إجمالاً.

1. **مصطلح الواقع**: في أصل اللغة قال ابن فارس: "الواو والقاف والعين أصل واحد يرجع إليه فروعه، يدل على سقوط شيء. يقال: وقع الشيء وقوعا فهو واقع." (1).

واصطلاحاً: عرفه أبو ياسر سعيد بن محمد بيهي بقوله:" ما عليه الشيء بنفسه في ظرفه" (2). وقصدنا نحن من الواقع هو واقع الناس كأفراد ومجتمعات ودول، وما هم عليه من عوائد وقوانين، وما تعارفوا عليه في أمورهم، وكل ما يؤثر في سلوكياتهم وقراراتهم في الحال والمآل. ويعجبني تعبير ابن خلدون في

(1)معجم مقاييس اللغة، ابن فارس: 3/133-134، مادة (وقع).

(2) فقه الواقع، أبو ياسر عيد بن محمد بيهي، ص157.

صياغة عنوان كتابه في التاريخ (ديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر، ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر)، فعبَّر عن الواقع التاريخي بالأيام، والأيام وعاء لهذا الواقع الذي نريد فهمه واستيعابه، عن طريق الحس والمشاهدة، أو الأخبار المنقولة عنه.

2. مصطلح المدعوين: في أصل اللغة المدعو لغة: اسم مشتق من الفعل (دعا)، و(دعو)، ودعوت فلانا: استدعيته. ودعا الرجل دعوا ودعاء: أي ناداه. والاسم من (دعا): الدعوة. والمدعو اسم مفعول من الفعل (دعا) [1].

واصطلاحاً: عمَّم الدكتور عبد الكريم زيدان التعريف وقال في تعريفه هو:" الإنسان، أيّ إنسان كان، هو المدعو إلى الله تعالى؛ لأنَّ الإسلام رسالة الله الخالدة، بعث الله به محمدًا -صلى الله عليه وسلم- إلى الناس أجمعين"(2)، واستدل بقوله تعالى: ﴿**قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا**﴾ (الأعراف:158)، وقوله تعالى:﴿**وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا**﴾ (سبأ:28). وهو الصحيح لأن الدعوة كما تنصرف إلى غير المستجيبين لها، تنصرف كذلك إلى المستجيبين من المؤمنين لتذكيرهم، قال تعالى:" وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ"[الذاريات:55]. وبهذا تشمل مطلق الانسان، وهي التي تعنينا في موضوعنا وفي تعامل النبي ﷺ مع المستجيبين لدعوته، وغير المستجيبين له.

3. المُراد بالعنوان إجمالاً: نقصد بعنوان المقالة إبراز مدى حاجة الدعاة إلى الله إلى فقه واقع المدعوين قبل الدعوة، وللإقناع بأهمية هذا الفقه سقنا العديد من الأمثلة من سيرة المصطفى ﷺ الدالة على اعتماده لهذا اللون الفقهي نظراً لأهميته الدعوية.

ثانياً: أهمية العناية بالو اقع عموماً.

في أثناء حديثنا عن الناس، فالناس جزء من هذا الواقع الذي نحياه ونعيشه، وإليهم تتوجه الدعوة بالأساس، والناس لهم عوائد وتقاليد وأحوال تختلف من شخص لآخر، ومن أسرة لأخرى، ومن قبيلة لأخرى، ومن مجتمع لآخر، ومن وطن أو دولة لأخرى، والمنطق العقلي والعلمي يقتضيان دراسة الجدوى قبل القيام بأي عملٍ، فالتاجر النبيه يدرس مكان بقالته والزبناء المحتملين قبل الشروع في تجارته، ويدرس السوق وأذواق الناس وما يريدونه وما لا يريدونه وغيرها، وكل هذا لضمان نجاح تجارته.

والمهندس قبل الشروع في البناء يدرس تربته وإمكانية تحملها لنوعية البناء، والفلاح كذلك بتجربته وحنكته يستطيع حفظ أنواع المغروسات والمكان والتربة الصالحة للاستنبات، وكذا زمان الغرس وزمان الجني، وهل تحتاج أم لا، وتمييز الأعشاب الضارة من غيرها. وهكذا في جميع الأشياء صغيرها وكبيرها.

(1)- انظر: لسان العرب، ابن منظور:158/14. الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، أبو نصر إسماعيل الجوهري الفارابي:2337/6. المغرب في ترتيب المعرب، ناصر بن عبد السيد أبى المكارم، ص165.

((2))- أصول الدعوة، عبد الكريم زيدان، ص373.

فقبل الاستخراب الغربي لديار المسلمين أرسلوا علماء الاجتماع لدراسة أحوال المسلمين ومجتمعاتهم قبل إرسال جيوشهم، وبنتائج ومخرجات هؤلاء لعبوا على أوتار التفرقة بينهم، وصنعت مالم تستطع الجيوش فعله.

وفي الغرب الآن مراكز أبحاث وهي تقوم ضمن ما تقوم به قبل استصدار أبحاثها على دراسة واقع العينات المبحوثة، لتقديم النصائح لأهل القرار في دولها، والهدف تركيع المسلمين وإصابة القرار هدفه ومحله.

وفقهاؤنا من خلال استقراء تراثنا الفقهي يعتمد في الكثير من أحكامه وفتاويه واقضيته على فقه الواقع، فلا بد للقاضي من فقه واقع الداعي والخصم قبل الحكم في النازلة، وأحياناً يطلب الخبرة من أهل الخبرة قبل استصدار الحكم. ونفس ما قيل عنه يقال عن المفتي قبل الفتوى فالفتاوى المالية لابد من الاستعانة بخبراء الميدان وكذلك الفتاوى الطبية وغيرها، وبعض الأحكام لا يمكن الفصل فيها بل لابد من الرجوع إلى العرف كأجرة المثل، وتقدير النفقة وغيرها.

الأدلة السابقة تبين بوضوح مدى أهمية العناية بفقه الواقع، ومدى اهتمام السلف بهذا الفقه، فأضحى ذو أهمية أيضا للفقه الدعوي.

ثالثاً: أهمية العناية بو اقع المدعوين خصوصاً.

حتى تنجح الدعوة فإن الواجب على الدعاة فقه واقع المدعوين وأصنافهم، ومتابعة وتعهد الأتباع بالتوجيه والتربية، وقد وجد هذا الخلق في الأنبياء عليهم السلام من خلال استقراء الكثير من الجوانب في دعوتهم ف:" العمل الإسلامي اليوم بكل أشكاله وألوانه يمر في مرحلة غاية في الدقة والحرج، وبما أن الواقع الدعوي واقع متغير، فإنَّه لا بد من فهم هذا الواقع وفقهه؛ لما يترتب على ذلك من نتائج وثمار في الحقل الدعوي، ولذا كان ينبغي أن توضع قواعد محددة لفقه هذا الواقع، وكيفية التعامل معه بطريقة صحيحة؛ لأن الخطأ في فهم الواقع يتولد عنه أخطاء أخرى في التصور ووضع الهدف والتخطيط، بعيدًا عن ضيق الأفق والانغلاق المخزي، والتقوقع في جانب من جوانب العمل الدعوي؛ لذا، كانت هذه القواعد لفهم الواقع الدعوي، والمنهج الأمثل في التعامل معه" [1].

ولا يختلف المشتغلون في حقل الدعوةِ إلى الله تنظيراً وممارسة في أن أزمة الدعوة في عصرنا نتيجة تحولات مجتمعية كثيرة، قد يتخبط فيها الدعاة أنفسهم فتارة يكون موضوع التخبط تحديد أولويات الدعوة، وقد يكون في طريقة التعامل مع المدعوين، وقد يكون الاختلاف في استعمال هذه الوسيلة او تلك، وقد يكون في تحديد مصالح الدعوة وترتيبها او تحديد المفاسد وترتيبها.

(1)- فقه واقع الدعوة: مقال منشور بموقع: www.noslih.com.

فالمدعو ركن من أركان الدعوة، إلى جانب الداعية والوسيلة، ولا ينبغي إهمال العلم بواقعه، لأن العلم به نحصل من خلاله على فوائد منها:

- أن نكون على بصيرة في حال المدعو حتى نقدِّم له ما يُناسبه.[1].

- المخالطة للمدعو للاستئناس، وللتأليف قبل التعريف، كما قال تعالى عن محمدﷺ في تربية الأتباع وتعهدهم:﴿**هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ**﴾(الجمعة: 2).

- جعل الدعوة عالمية: الداعية دعوته لكل الناس: فدعوة خاتم الأنبياء عالمية، وكما تكون للكافر تكون للمسلم والأصناف المذكورة في قوله تعالى:﴿**ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ**﴾ [فاطر: 32]، وهذه الحقوق موجودة في أتباع الرسل، فيدعى السابق بالخيرات إلى الازدياد من الخيرات، ويُدعى الظالم لنفسه إلى الرجوع عن فسقه وفجوره، ويُدعى المقصد إلى الثبات على الطاعة وتجنب المعصية ؛

- قصد الداعية لمكان المدعو وهذا يقتضي المعرفة بمكانه.

- ينزِّل الداعية الناس منازلهم ويعرف لأهل الفضل فضلهم ولا يستهين بالمدعوين.

- يعرف الداعية متى يخالط الناس حيث تحسن الخلطة ومتى يعتزلهم حيث تحسن العزلة؟.

- يُخاطب الداعية الناس على قدر عقولهم: لقوله:" حدِّثوا الناس بما يعرفون أتحبون أن يُكذَّب الله ورسوله"([2]).

- يتقن الداعية لغة المدعو: فتعلم لغة المدعو واستعمالها لأدواتها شرط من شروط التواصل الدعوي([3]).

- التعرف على المدعو وفقه واقعه عامل أساس في كسبه... ([4]).

وإلى جانب هذه الأهمية وغيرها يقتنع الداعية أنه:

- لا إكراه في الدين.

- وانَّ المدعو تملك دعوته ولا تملك هدايته.

رابعاً: أهمية العناية بالسيرة في معرفة تعامل صاحب الرسالة مع المدعوين.

وذلك من خلال:

(1) فقه الدعوة إلى الله والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر:9. أبو فيصل البدراني

(2) رواه البخاري: كتاب العلم، باب من خصَّ بالعلم قوماً دون قوم كراهية ألا يفقهوا، الحديث رقم: (127)

(3) أولويات الدعوة في الغرب في ضوء مقاصد الشريعة، ص273 .

(4)-ينظر للتوسع في الموضوع: أصول الدعوة: 296-297، بصائر دعوية: 46-52، الأسس العلمية لمنهج الدعوة: 314- 339، الخلاصة في فقه الدعوة: 103-206 ، كيفية دعوة الملحدين إلى الله تعالى في ضوء الكتاب والسنة:4.

- **تَعلُّمِها:** روي عن زين العابدين بن علي بن الحسين قال:**(كُنَّا نُعَلَّمُ مَغَازِيَ النَّبِيِّ ﷺ وَسَلَّمَ وَسَرَ ايَاهُ كَمَا نُعَلَّمُ السُّورَةَ مِنَ الْقُرْآنِ)**[1]، والمُراد بالمغازي غزوات النبي ﷺ التي خرج فيها بنفسه، والسرايا التي أوفد فيها ولم يخرج بنفسه، وربَّما اطلِق على المغازي عموم السيرة. فلاحظنا من خلال هذا الأثر كيف كان السلف يتلقون السيرة من أساتذتهم ويحفظونها كحفظهم للقرآن، وهي طبعاً لا تُجاري القرآن في الأهمية، وإنما لبيان قيمة الاهتمام بها، وهذا يُعطينا ضرورة إحياء مدارسَة السِّيرة في مدارسنا ونوادينا وجامعاتنا.

- رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَيَعُدُّهَا عَلَيْنَا، وَسَرَايَاهُ وَيَقُولُ: يَا بَنِيَّ هَذِهِ مَآثِرُ آبَائِكُمْ فَلَا تُضَيِّعُوا ذِكْرَهَا"[2]،فلماذا كانوا يهتمون بتعليم السيرة للأبناء؟ لأن السيرة طريق لفهم القرآن، وهي مثلها مثل التاريخ يحفظ ذاكرة الأمة، ويُحي مجد الآباء ومآثرهم كما قال محمد بن سعيد، ولاسيما إذا كان هؤلاء من القوم الصالحين الذين نتعبد بالاقتداء بهم. على غرار قول الشاعر:

أولَئِكَ قَـومٌ شَيَّدَ اللهُ فَخرَهُم *** فَما فَوقَهُم فَخرٌ وَإِن عَظُمَ الفَخرُ

أُناسٌ إِذا ما الدَهرُ أَظلَمَ وَجهُهُ *** فَأَيديهُمُ بيضٌ وَأَوجُـهُهم زُهرُ[3].

- **إدراك فوائد الاشتغال بالسيرة:** ومن أعظم فوائد الاشتغال بالسيرة النبوية وسير السلف الصالح، هو إصلاح القلب كما قال ابن الجوزي:" رأيت الاشتغال بالفقه وسماع الحديث لا يكاد يكفي في صلاح القلب؛ إلا أن يمزج بالرقائق، والنظر في سير السلف الصالحين"[4]،وقال:" وأنفع العلوم النظر في سير الرسول ﷺ وأصحابه:" أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ"(الأنعام:90) ."[5].

فيجب علينا اقتداءً بالسلف الصالح أن يكون لديك في منزلك كتاب جامع مبسط في السيرة النبوية مثل الرحيق المختوم للمباركفوري، وأن تجمع الأولاد والزوجة لمدارسة سيرة النبيﷺ. وإذا لم يكن الأب قارئاً أو لا أحد في المنزل يتقن ذلك، فيمكن الاستعانة بالأشرطة الصوتية النافعة، أو صوتيات مرئية وغيرها مما هو متوفر ومتيسر في هذا الزمان والحمد لله. وإذا كانوا أبناءً صغاراً فيمكن ربطهم برسوم متحركة هادفة تجسِّد سيرة النبي ﷺ، وتُقرب فهمها إلى أذهانهم الصغيرة إذ الغاية واحدة

خامساً: أمثلة لعناية النبي ﷺ بو اقع المدعوين، وأوجه الاستفادة منها في و اقع الدعوة اليوم.

أولاً: أمثلة لعناية النبي ﷺ بو اقع المدعوين.

عناية النبي ﷺ بفقه الواقع هو سيرته كلها فلم تنفك عن الواقع لحظة، منذ اللحظة الأولى لبعثته إلى لحظات وفاته، فتصحيح العقائد إنما هو نابع من واقع المجتمع الشركي، وبناء التشريعات إنما هو نابع

(1) الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع للخطيب البغدادي:195/2.

(2) الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع للخطيب البغدادي:195/2.

(3) الأبيات لِعامر بن الظرب العَدواني.

(4) صيد الخاطر، ابن الجوزي، ص228.

(5) المرجع نفسه:80.

من واقع الحاجة إلى إصلاح دنيا الناس ومعادهم. وعناية النبي ﷺ بواقع المدعوين من مستلزمات الأمر الرباني له بالدعوة إلى الله على بصيرة، قال تعالى:﴿**قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي**﴾(يوسف:108)، وليس باستطاعتنا استقراء السيرة النبوية ككل في هذه العجالة، لمعرفة أوجه هذا التطبيق النبوي الدعوي في مراعاة واقع المدعوين، وحسبنا الاكتفاء ببعض الأمثلة للاستدلال بها على هذا الاهتمام النبوي، ومن ذلك:

- بدأ النبي ﷺ دعوته سراً، فكان يجتمع بأصحابه في دار الأرقم، وهذه البداية في الأساس مراعاة لواقع الدعوة وحفظ لها ولأصحابه، فليس من الحكمة الجهر بها في لحظة الاستضعاف فيسهل القضاء عليها من طرف من يتربص بها من كفار قريش، وهذا الحكم ساري المفعول عند توفر دواعي الاستضعاف، فلا بد من أخذ الحيطة والحذر والكتمان ما أمكن حتى تستوي الدعوة على سوقها وتتمكن.
- ومما يتصل بالدعوة السرية التركيز على ذوي الثقة في دعوتهم أولاً، وهذا يقتضي معرفتهم عن طريق المخالطة والاكتشاف لواقعهم، قال ابن الجوزي:" كان رسول الله ﷺ يستر النبوة ويدعو إلى الإسلام سرا، وكان أبو بكر رضي الله عنه يدعو أيضا من يثق به من قومه ممن يغشاه، ويجلس إليه، فلما مضت من النبوة ثلاث سنين نزل قوله عز وجل:﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾ [الحجر: 94]، فأظهر الدعوة "[1]، وقال محمد الغزالي:" ومن الطبيعي أن يعرض الرسول ﷺ- أولا- الإسلام على ألصق الناس به من آل بيته وأصدقائه، وهؤلاء لم تخالجهم ريبة قطّ في عظمة محمد عليه الصلاة والسلام، وجلال نفسه، وصدق خبره، فلا جَرم أنهم السابقون إلى مؤازرته واتّباعه"[2].
- وخلال مرحلة الدعوة الجهرية مُنع النبي ﷺ من القتال، وكان يأمر أصحابه بالصبر، فَعَنْ خَبَّابِ بْنِ الأَرَتِّ، قَالَ: شَكَوْنَا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَهُوَ مُتَوَسِّدٌ بُرْدَةً لَهُ فِي ظِلِّ الكَعْبَةِ، قُلْنَا لَهُ: أَلاَ تَسْتَنْصِرُ لَنَا، أَلاَ تَدْعُو اللَّهَ لَنَا؟ قَالَ:(**كَانَ الرَّجُلُ فِيمَنْ قَبْلَكُمْ يُحْفَرُ لَهُ فِي الأَرْضِ، فَيُجْعَلُ فِيهِ، فَيُجَاءُ بِالْمِنْشَارِ فَيُوضَعُ عَلَى رَأْسِهِ فَيُشَقُّ بِاثْنَتَيْنِ، وَمَا يَصُدُّهُ ذَلِكَ عَنْ دِينِهِ، وَيُمْشَطُ بِأَمْشَاطِ الحَدِيدِ مَا دُونَ لَحْمِهِ مِنْ عَظْمٍ أَوْ عَصَبٍ، وَمَا يَصُدُّهُ ذَلِكَ عَنْ دِينِهِ، وَاللَّهِ لَيُتِمَّنَّ هَذَا الأَمْرَ، حَتَّى يَسِيرَ الرَّاكِبُ مِنْ صَنْعَاءَ إِلَى حَضْرَمَوْتَ، لاَ يَخَافُ إِلَّا اللَّهَ، أَوِ الذِّئْبَ عَلَى غَنَمِهِ، وَلَكِنَّكُمْ تَسْتَعْجِلُونَ**)[3]. قال ابن حجر تعليقاً على الحديث:" تسلية لهم وإشارة إلى الصبر حتى تتقضى المدة المقدورة"[4]، وليس أضر على الدعوة من آفة الاستعجال.
- ومن مراعاة هذا الفقه التعرف على المدعوين، ومن ذلك:

(1) المنتظم في تاريخ الأمم والملوك، ابن الجوزي: 364/2.

(2) فقه السيرة، محمد الغزالي، ص102.

(3)-جزء من حديث رواه البخاري، كتاب المناقب، باب: علامات النبوة في الاسلام، برقم: 3612.

(4) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني:317/12.

ما ذكره ابن إسحاق أنه ﷺ في رحلته إلى الطائف، وحينما ألجأته ثقيف إلى حائط لعتبة وشيبة ابني ربيعة التقى غلاما لهما اسمه " عدَّاس " ، يقول ابن إسحاق: " فقال له رسول الله ﷺ: ومن أي أهل البلاد أنت يا عداس؟ وما دينك؟ قال: نصراني، وأنا رجل من أهل نينوى[1]، فبدأه ﷺ بالتعرف على بلاده وديانته، فكان هذا التعرف نقطة البداية في تحول هذا الرجل من دينه إلى دين الإسلام.

- ولنفس الغرض كان يأخذ معه أبي بكر الصديق لمعرفته بأنساب العرب، ليقوم بمهمة تعريفه بالمدعوين، كما جاء في عرض نفسه على شيبان بن ثعلبة، فقال أبو بكر ممن القوم؟ فقالوا: من شيبان بن ثعلبة فالتفت أبو بكر إلى رسول الله ﷺ فقال: "بأبي أنت وأمي، هؤلاء غرر في قومهم" وفيهم مفروق بن عمرو وهانئ بن قبيصة، ومثنى بن حارثة والنعمان بن شريك[2].
- وما رواه جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال:" كان رسول الله ﷺ يعرض نفسه على الناس بالموقف فيقول: " ألا رجل يحملني إلى قومه، فإن قريشا قد منعوني أن أبلغ كلام ربي "، قال: فأتاه رجل من بني همدان، فقال:" ممن أنت "؟ قال: من همدان، قال: " فعند قومك منعة؟ " قال: نعم." [3].
- وحينما التقى ﷺ وفد يثرب، بدأهم بسؤاله: " من أنتم؟ " قالوا: من الخزرج، قال: " أفلا تجلسون أكلمكم؟ ! "، قالوا: نعم "[4]، فكان هذا التعرف مبدأ الحوار معهم، حيث عرض عليهم دعوته المباركة، فأسلموا ودعوا أقوامهم، فلم يبق دار من دور الأنصار إلا وفيها ذكره.
- وبعد أن هاجر ﷺ إلى المدينة استمر يتعرف على مدعويه من الوفود وغيرهم قبل عرض الدعوة عليهم، من ذلك قوله ﷺ لوفد عبد القيس حين قدموا عليه: " من القوم أو من الوفد؟ " قالوا: ربيعة، قال: " مرحبا بالقوم أو بالوفد غير خزايا ولا ندامى"[5]،

هذه الأمثلة بينت مدى حرصه ﷺ على التعرف على من يدعوهم قبل أن يعرض الدعوة عليهم، فالحكمة من هذا التعرف فقه واقع هؤلاء المدعوين، وفقه أحوالهم وعوائدهم أو ما يمكن تسميته في واقعنا بالدراسة الاجتماعية لمجتمع معين لمعرفة منافذ والسبل الصحيحة لدعوتهم إلى الاسلام. ولذلك لما ارسل النبي ﷺ معاذاً إلى اليمن عرفه بهم فقال:" إنك ستأتي قوماً أهل كتاب"[6]، ليعرف حالهم ويستعد لهم.

قال ابن عثيمين:" فلا بد أن تعلم حال هذا المدعو ما مستواه العلمي؟ وما مستواه الجدلي؟ حتى تتأهب له فتناقشه وتجادله، لأنك إذا دخلت مع مثل هذا في جدال وكان عليك لقوة جدله صار في هذا نكبة عظيمة

(1) سيرة ابن هشام:421/1.

(2) الروض الأنف، السهيلي:35/4.

(3) دلائل النبوة، أبوبكر البيهقي:413/2.

(4) سيرة ابن هشام:428/1.

(5) السيرة النبوية وأخبار الخلفاء، ابن حبان:358/1.

(6) رواه مسلم: كتاب: الأقضية ، باب: الحكم بالظاهر، واللحن بالحجة، الحديث رقم(1713)

على الحق وأنت سببها، ولا تظن أن صاحب الباطل يخفق بكل حال فإن الرسول صلى الله عليه وسلّم، قال:" إنكم تختصمون إليّ ولعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض فأقضي له بنحو ما أسمع"[1]، فهذا يدل على أن المخاصم وإن كان مبطلاً قد يكون ألحن بحجته من آخر فيُقضى بحسب ما تكلم به هذا المخاصم فلابد أن تكون عالماً بحال المدعو.[2].

- وحينما رأى ﷺ سيد الأحابيش قادما عليه وهو في الحديبية، قال: " هذا فلان وهو من قوم يعظمون البدن فابعثوها له " فبعثت له واستقبله الناس يلبون"[3] . فاستطاع إقناعه بيسر وسهولة، حيث عاد الرجل وهو يقول: " سبحان الله ما ينبغي لهؤلاء أن يصدوا عن البيت "[4]، ولو لم يعرفه ﷺ لما انتزع منه هذا الاعتراف.

- **ومن ذلك إرسال أصحابه إلى الحبشة:** لمَّا اشتد الأذى بالمؤمنين أمرهم النبيﷺ ثانية بالهجرة إلى الحبشة قال ابن سعد:" لما قدم أصحاب النبي ﷺ مكة من الهجرة الأولى اشتد عليهم قومهم وسطت بهم عشائرهم ولقوا منهم أذى شديدا. فأذن لهم رسول الله ﷺ في الخروج إلى أرض الحبشة مرة ثانية، فكانت خرجتهم الآخرة أعظمها مشقة ولقوا من قريش تعنيفا شديدا ونالوهم بالأذى "[5]. وقالت أم سلمة رضي الله عنها:" لما ضاقت علينا مكة وأوذي أصحاب رسول الله ﷺ وفتنوا ورأوا ما يُصيبهم من البلاء والفتنة في دينهم وأنَّ رسول الله ﷺ لا يستطيع دفع ذلك عنهم، وكان رسول الله ﷺ في مَنعة من قومه وعمِّه لا يصل إليه شيء مما يكره مما ينَال أصحَابه، فقال لهم رسول الله ﷺ: إن بأرض الحبشة ملكاً لا يظلم أحد عنده، فالحقوا ببلاده حتى يجعل الله لكم فرجاً ومخرجاً مما أنتم فيه"[6]، ومحل الشاهد معرفة النبيﷺ بأخبار من حوله، وبصفاته فقد عرف الحبشة وصفات ملكها، وأنه لا يظلم عنده أحد، فكان حُسن الاختيار النبوي نابع من فقه واقع الدولة المحيطة به.

- ومن ذلك **الجواب بأجوبة مختلفة لسؤال واحد:** سئل رسول الله ﷺ: أي الأعمال أفضل؟ فأجاب بأجوبة متعددة منها أنها: إيمانٌ بالله ورسوله - الجهاد في سبيل الله - حج مبرورٌ - الذاكرون الله كثيراً والذاكرات - خُلُق حَسَن - بِر الوالدين - الصلاة لوقتها ... وغيرها[7]. وهذا التعدد في الجواب نتيجة مراعاة النبيﷺ لحال السائل وهو عين فقه الواقع فمن رآه يحتاج الى الاهتمام بالصلاة وعدم تضييعها نصحه

(1) رواه البخاري: كتاب: الزكاة ، باب: أخذ الصدقة من الأغنياء وتردفي الفقراء حيث كانوا الحديث برقم:(1496)

(2) زاد الداعية إلى الله، محمد بن صالح بن محمد العثيمين، ص12.

(3) رواه البخاري: كتاب: الشروط ، باب: الشروط في الجهاد والمصالحة مع أهل الحرب وكتابة الشروط، الحديث رقم:(2731)

(4) نفس التخريج السابق.

(5) الطبقات الكبرى، ابن سعد:1/161-162.

(6) سيرة ابن اسحاق:1/213.

(7) انظر بعض هذه الأحاديث عند مسلم رقم: 83-84، وعند البخاري برقم:26-504، وعند الترمذي رقم: 173، وعند النسائي رقم:609.

بذلك، ومن رأى عنده نقص في البر بالوالدين نبهه على ذلك، فيكون الأفضل في حق الرجل ما يتقنه أو يبرع فيه فيوجه الغني إلى الانفاق، والشجاع إلى الجهاد، وهكذا. وقد يُحتمل التنبيه كذلك من النبي ﷺ للأعمال التي يكثر أجرها، ويرغَب لأمته في نيل ثوابها وخيرها.

- ومن ذلك **إرسال الرسائل الى ملوك عصره:** عن أنس رضي الله عنه :" أن رسول الله ﷺ كتب إلى كسرى وقيصر وإلى النجاشي - وهو غير الذي صلّى عليه - وإلى كل جبّار يدعوهم إلى الله عز وجل"[1]، فهذه الكتابة دِلالة على فقه الواقع السِّياسي والدعوي، وهو من متطلبات رسالة البلاغ للنبيﷺ حتى يتم بلاغه على أحسن وجه، لنه بعث للعالمين كافة فكان لزاماً استيعاب هذا الواقع العالمي وتبليغه الدين الحق.

- ومن ذلك **تكليف البعض بالمسؤولية ومنع البعض منها:** فسأل مثلاً عن علي في غزوة خيبر فأعطاه الراية، وأمَّر الكثير من القادة على رأس جيوش، ومنع أبا ذر من المسؤولية لمَّا طلبها والشواهد كثيرة مما يدل على فقه النبي بأصحابه ومؤهلاتهم وميولاتهم واستعداداتهم، وعلى أساسها يتم إسناد المسؤوليات لخير الدعوة. فإذا تم وضع الرجل غير مناسب في مكان المسؤولية بناءً على اعتبارات دنيوية ونفعية وشخصية كان فساده أكثر من صلاحه.

- ومن ذلك **أمر الذي يصلي بالناس بالتخفيف:** قالﷺ:" إذا أمَّ أحَدُكُمُ النَّاسَ، فَلْيُخَفِّفْ، فإنَّ فِيهِمُ الصَّغِيرَ، والْكَبِيرَ، والضَّعِيفَ، والْمَرِيضَ، فإذا صَلَّى وحْدَهُ فَلْيُصَلِّ كيفَ شاءَ. "[2]، وفي لإشارة إلى أصحاب الأعذار فقه للواقع وضرورة مراعاة لحالهم.

وغيرها من الأمثلة التي لا تنحصر وتبين عناية النبيﷺ بفقه الواقع، ولو استطردنا في الأمثلة ونخلنا السيرة النبوية لاحتاج الأمر إلى مجلَّدات في استخراج مدى عناية النبيﷺ بهذا الفقه. وهذه رسالة إلى الدعاة وأصحاب المسؤوليات لأجل الاقتداء بالنبيﷺ في هذه الخاصية حتى تكون دعوتهم على بينة وبصيرة.

ثانياً: وأوجه الاستفادة من المنهج النبوي في فقه الو اقع لو اقع الدعوة اليوم.

تتعدَّد أوجه عناية الأمة اليوم بالسيرة النبوية ولعلي أقف على بعض هذه الأوجه ومنها:

1- حاجة الأمة اليوم إلى التأسي بالرسول والصحابة: في ظل أزمة القدوات حيث استبدل شبابنا النبيﷺ والسلف الصالح بقدوات زائفة كالرياضيين والممثلين والمغنيين...، وتقليد الغرب في مساوئ أخلاقهم، عوض محاسن حضارتهم. وأثر ذلك بادِ للعيان، وأصبحت الشخصية المسلمة تذوب رويداً رويداً بسبب هذا التقليد الأعمى، والواجب اتخاذ النبيﷺ الأسوة الحسنة لقوله تعالى:﴿**لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا**﴾(الأحزاب:21)، يقول ابن كثير تعليقاً:" هذه الآية الكريمة أصل كبير في التأسي برسول الله ﷺ في أقواله وأفعاله وأحواله؛ ولهذا أمر الناس بالتأسي بالنبي ﷺ

(1)- رواه مسلم الحديث رقم:1774.

(2) رواه مسلم الحديث رقم:467.

يوم الأحزاب، في صبره ومصابرته ومرابطته ومجاهدته وانتظاره الفرج من ربه، عز وجل، صلوات الله وسلامه عليه دائما إلى يوم الدين"[1]،

2- حاجة الأمة اليوم الى زيادة حب النبيﷺ: محبة النبيﷺ مثلها مثل الايمان فكما أن الايمان يزيد بالطاعات وينقص بالمعاصي، فكذلك محبته تزيد بقدر معرفتنا بسيرته وسنته، لأن من جهل الشيء عاده، والعلم بالشيء بداية المحبة الصادقة، ومثل محبة الله فلا تكون إلا بالمعرفة به. والصحابة اشد الناس حباً للرسول بسبب المعاينة والمعرفة عن قرب له، ولئن فاتتنا هذه الخصلة التي للصحابة فلا يفوتن المعرفة به من خلال سنته وسيرته، ومعرفة هديه ولزومه، قال تعالى:﴿**قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (*) قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ**﴾ (آل عمران:31).

3- حاجة الأمة اليوم الى إصلاح القلوب والنية: أزمتنا اليوم كثيراً فيما يتصل بالعمل الدعوي والخيري وغيرها أزمة نفس، إنها أزمة الاخلاص وتجريد العمل لله، وكثير من المشاكل في العمل الدعوي سَببه غياب هذا الجانب، والعلاج في استقراء سنة وسيرة المصطفى القائل فيما أوتيه من جوامع الكلم:" إنَّما الأعْمالُ بالنِّيّاتِ"[2]، ولمَّا سُئل عن الرجل يُقاتل لأجل المغنم، ويُقاتل لأجل الذكر ليُرى مكانه قال: "مَن قَاتَلَ، لِتَكُونَ كَلِمَةُ اللَّهِ هي العُلْيَا، فَهو في سَبيلِ اللَّهِ."[3]، وفي حديث عائشة رضي الله عنها:" أنَّ رَسولَ اللهِ ﷺخَرَجَ مِن عِندِهَا لَيْلًا، قالَتْ: فَغِرْتُ عليه، فَجَاءَ فَرَأَى ما أَصْنَعُ، فَقالَ: ما لَكِ؟ يا عَائِشَةُ أَغِرْتِ؟ فَقُلتُ: وَما لي لا يَغَارُ مِثْلِي علَى مِثْلِكَ؟ فَقالَ رَسولُ اللهِ ﷺ: أَقَدْ جَاءَكِ شيطَانُكِ قالَتْ: يا رَسولَ اللهِ، أَوْ مَعِيَ شيطَانٌ؟ قالَ: نَعَمْ قُلتُ: وَمع كُلِّ إنْسَانٍ؟ قالَ: نَعَمْ قُلتُ: وَمعكَ؟ يا رَسولَ اللهِ، قالَ: نَعَمْ، وَلَكِنْ رَبِّي أَعَانَنِي عليه حتَّى أَسْلَمَ."[4]، ما يدل على اهتمام النبي ﷺ بإصلاح الظن السيء لزوجاته أمهات المؤمنين، وهذا لا يتأتى إلا بإصلاح القلب والنية.

4- حاجة الأمة اليوم الى الاصلاح العقدي: الفساد العقدي قبل مجيئ النبيﷺ موجود على شكل عبادة الأصنام، والقصد للكهان، وتعظيم الجن... وغيرها. ومكث النبيﷺ في مكة ثلاثة عشر سنة يصلح عقائد الناس وشواهد ذلك في القرآن وسيرته مشهورة. ونحن اليوم لابد من الوعي بمظاهر الفساد العقدي في واقعنا من مثل: التمسح والطواف بالقبور، والذبح لها، والدعاء عندها والاستغاثة بها، والقصد الى السحرة والمشعوذين والكهان والحلف بغير الله، واستطلاع الغيب بالأبراج... وغيرها. فنسأل أنفسنا كيف أصلح

(1) تفسير ابن كثير:391/6.

(2) رواه البخاري الحديث رقم(1)

(3) رواه البخاري الحديث رقم (3126)

(4) رواه مسلم الحديث رقم(2815)

النبيﷺ هذا الفساد في العقيدة؟ لابد من اتباع سيرته في ذلك فهو خير الهدي المتبع لواقعنا لأجل العلاج، وهذا الفقه السيري، وهذا الهدي:

- يقول لنا: الأمة اليوم في حاجة إلى الإصلاح العقدي.
- يقول لنا: العقيدة أولاً.
- يقول لنا: التدرج في الإصلاح.
- يقول لنا: لا مساومات ولا أنصاف حلول في العقيدة، كما في مساومات المشركين للنبيﷺ في أن يُعبدوا إلهه مرة، ويعبد إلههم مرة فجاء الحسم الإلهي بنزول سورة الكافرون.

5- حاجة الأمة اليوم إلى الإصلاح التشريعي: معظم الشرائع كانت في المرحلة المدنية، في السنة الأولى صلى أول جمعة في بني سالم بن عوف عند هجرته، وفيها شرع الآذان، وفيها كتبت وثيقة المدينة التي تضمنت تشريعات منظمة للعلاقات في المدينة، وشرع الصيام في شعبان من السنة الثانية، وفيها فرضت زكاة الفطر، وفرضت الزكاة ذات النصب وفي السنة الثالثة نزل تحريم الخمر، وفي الرابعة رجم اليهودي واليهودية اللذين زنيا .وفي الخامسة سابق بين الخيل، وفي السادسة استسقى بأهل المدينة لما جدبوا، ونزل فرض الحج، و حرمت المسلمات على المشركين، وكتب إلى ملوك العالم يدعوهم فيها إلى الإسلام.وفي السابعة حرمت لحوم الحمر الأهلية.[1].ونحن اليوم علينا إصلاح تشريعاتنا على ضوء السيرة النبوية، فنحي شعيرة الزكاة مثلاً كما كانت في زمن النبيﷺ منظمة ويرسل عماله لجمعها ثم يتولى توزيعها على الفقراء والمساكين وهكذا.

6- حاجة الأمة اليوم الى اختيار الكفاءات ووضع الرجل المناسب في مكانه: مسترشدين بفقه السيرة النبوية من خلال اختيار النبيﷺ للكفاءات في تولي المسؤوليات: كتكليف أبي ذر بالرجوع إلى قومه ودعوتهم، واختار مصعب بن عمير سفيراً للدعوة في المدينة، وكلف بلال بالآذان لمَّا شرع، واختار العديد من الصحابة لقيادة السرايا والجيوش لكفاءتهم كخالد واسامة وحمزة وغيرهم. وأمر الشعراء بتفتيق قريحتهم الشعرية للدفاع عن الدعوة ومنهم حسان بن ثابت وكعب بن زهير... وهكذا. والمقصود في واقعنا الدفاع عن الاسلام ونشره من خلال مؤهلاتك وتخصصك والاسلام يحتاج للكل ولا تتعلل بكون تخصصك ليس في علوم الشريعة، بل تستطيع الدفاع عن الاسلام ونفعه بما تستطيع من خلال خبراتك في مجال معين، وإذا اجتهدت وجدت المجال الذي يمكن نفع الاسلام من خلاله.

7- الرد على القرآنيين: القائلين بلزوم الاكتفاء بالقرآن دون غيره، وهذه دعوى عارية من الدليل، لأن القرآن نفسه يدعو إلى طاعة الرسول، ولا معنى لطاعته دون الأخذ بسنته وسيرته، ولا يُمكن فهم القرآن بدونهما، ففهم آيات من سورة الأنفال لا يتم الا بقراءة أحداث من غزوة بدر، ولا يمكن فهم سورة الحشر الا بمعرفة

(1) انظر، الخلاصة الهية بترتيب أحداث السيرة النبوية، وحيد بنبالي، ص 51.

أحداث وتفاصيل غزوة بني النضير، وآيات من سورة آل عمران الا بمعرفة غزوة أحد وقل نفس الشيء عن سورة الضحى والفيل وقريش وهكذا.

ويوضح هذا قوله تعالى:﴿**يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ**﴾(المائدة:105)، وليس في الآية مستدل على ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فقد سأل أبو ثعلبة الخشني عنها رسول اللهﷺفقال:"**(بل ائتمروا بالمعروف، وتناهوا عن المنكر، حتى إذا رأيت شحا مطاعا ، وهوى متبعا، ودنيا مؤثرة، وإعجاب كل ذي رأي بر أيه، فعليك بخاصة نفسك، ودع العوام، فإن من ورائكم أياما الصبر فيهن مثل القبض على الجمر، للعامل فيهن مثل أجر خمسين رجلا يعملون كعملكم)** "[1]،والسنة كذلك لا يفهم المراد من بعض الأحاديث في فهمها أو تعيين حكمها إلا بالسيرة، كما روى أنس رضي الله عنه:" أن النبي ﷺنهى أن يشرب الرجل قائماً، قال قتادة: فقلنا: فالأكل؟ فقال: **(ذاك أشر أو أخبث)**[2]، الظاهر من هذا النهى النبوي أن الشرب من قيام حرام، ولاسيما بعد قوله في رواية أبى هريرة :**(فمن نسى فلْيستقِيءْ)**[3]. وجاءت رواية عبد الله بن عباس قال:" سقيت رسول الله ﷺمن زمزم فشرب قائماً"[4]، ورواية أنس بن مالك:" أن النبيﷺدخل على أم سليم وفى البيت قِرْبة معلقة فشرب مِنْ فِيها وهو قائم، قال: فقطعت أم سليم فم القِربة فهو عندنا"[5].

فالروايات ظاهرها التعارض وقيل في الجمع بينها أن النهي محمول على التنزيه، وشربه قائما لبيان الجواز، وهذا يدل على أن أحاديث النهي تحمل على الاستحباب[6].

8- **حاجة الأمة اليوم الى السيرة للجواب على إشكالات الأسرة:** فما أكثر المشكلات التي تتخبط فيها الأسرة اليوم، وارتفاع حالات الطلاق، وعدم الاستقرار الأسري وغيرها من المشاكل. ومن خلال هديهﷺ في تعامله مع أزواجه يمكن الاهتداء إلى الحلول الناجعة، لأن سبب هذه الإشكالات في تغييب هذا الهدي. والنبي مرَّت في حياته السرية بعض هذه المشاكل وهي مذكورة في كتاب الله وفي كتب السيرة، وهذه المشاكل لجعله القدوة في كل شيء، وتسلية من وجد هكذا مشاكل كمشكلة طلب أزواجه زيادة الإنفاق، وحادثة الافك، وغيرها. كما أن هناك إرشادات نبوية للشباب بالزواج، أو الصيام في حال عدم القدرة عليه كما ثبت الحديث بذلك.

9- حاجة الأمة اليوم الى الاسترشاد بالسيرة في التربية والتعليم: للنبيﷺأساليب كثيرة في التربية والتعليم يمكن الاستفادة منها في واقع تعليمنا كتكرار اللفظ الواحد بهدف ترسيخ معناه، أو بيان أهميته وخطورته.

(1) رواه الترمذي الحديث رقم(3085)

(2) رواه مسلم الحديث رقم (2024)

(3) رواه مسلم الحديث رقم(2026)

(4)- رواه مسلم الحديث رقم:2027.

(5)- رواه أحمد برقم:12188.

(6)- انظر فتح الباري:83/10.

والرسوم التوضيحية كما كان يخط خطوطا على الأرض يوضح لأصحابه، والإشارة باليد لزيادة توضيح المعنى. وكتابة الرسائل. وضرب الأمثال، والقصة المسلية والمشوقة فكثيراً ما يُورد من قصص بني اسرائيل وغيرها كثير بشواهده وأدلته. وبيت القصيد ان هذه الأساليب النبوية آتية من مشكاة الوحي نافعة بإذن الله في التوظيف مع استعمال غيرها من الأساليب التي تُفيد في تحقيق مقصود التربية والتعليم، فالأساليب لا حصر لها.

10- حاجة الأمة اليوم الى الاسترشاد بالسيرة في الاقتصاد: فالنبيﷺ حث على الزكاة وهو مورد شرعي لبيت المال للإنفاق على المستحقين، وأرسل العمال عليها، وحث على الإنفاق العام المستحب ورغب في حصول أجره، وأقر بحرية البيع في منع التسعير، وبالمقابل حرَّم التعاملات الربوية والاحتكار والغش والأحاديث في هذا ثابتة. وقسم الغنائم في غزواته وقسم أموال بني النضير. فكل هذا الفقه يوضح مدى حاجتنا إلى تعميق البحث فيه وتقريبه لأهل الاختصاص في الاقتصاد والمال والأعمال لتكييفها وفق النظرية الاسلامية في الاقتصاد إذا حسنت النوايا، وكانت هناك رغبة للرجوع إلى شريعة رب العالمين.

11- حاجة الأمة اليوم الى الاسترشاد بالسيرة في السياسة الشرعية: ومن ذلك ترك النبي ﷺإعادة بناء الكعبة لأن الوقت غير مناسب والناس حديثو العهد بالإسلام، وكتب ثيقة المدينة لتنظيم العلاقة بين المسلمين من جهة، وبينهم وبين اليهود من جهة أخرى في مجتمع المدينة، وأقرَّ اليهود على دينهم وشرط لهم، واشترط عليهم فيما يُشبه دساتير اليوم. وترك قتل المنافقين لئلا يقول الناس بأن محمداﷺ يقتل أصحابه. وعقد صلح الحديبية مع قريش فكان من ثماره الفتح العظيم، وهادن قبائل وحارب أخرى... كل هذا يعطينا الفقه النبوي في السياسة الشرعية الذي هو جدير بالاستفادة منه وإن كان أغلبه يدخل في مسائل الاجتهاد التي تتغير بتغير الزمان والمكان، ولكنه لا مناص من فرز كلياته وقطعياته حتى تكون خطوطاً حمراء أمام ساسة اليوم من المسلمين المحبِّين للاقتداء بهدي نبيهم.

وفي الختام: السيرة النبوية ليست سيرة لإنسان عادي، بل هي سيرة نبي مرسل يوحى إليه ولا ينطق عن الهوى، واتصاله بشخص النبيﷺ أعطى لها هذه الأهمية والحاجة التي ينبغي علينا استثمار فقهها في إصلاح الفرد والمجتمع، وإصلاح العقيدة والشريعة، وإصلاح الظاهر والباطن، وإصلاح الزوج والزوجة، وإصلاح الداعية والمدعو، وإصلاح الدنيا والآخرة...إنها سيرة متكاملة شاملة فما علينا سوى الفقه بها، ثم العمل بها لنحصد ثمار الارتباط بها وبالله التوفيق.

لائحة المصادروالمراجع:

- القرآن الكريم.
- الأسس العلمية لمنهج الدعوة، عبد الرحمن بن محمد المغذوي، دار الحضارة، تاريخ الطبع: 1430هـ
- أصول الدعوة، عبد الكريم زيدان، مؤسسة الرسالة ناشرون، ط1434:1هـ-2013م.
- أولويات الدعوة في الغرب في ضوء مقاصد الشريعة، ونيس المبروك، مقال مطبوع ضمن أعمال ندوة: إعمال المقاصد في المجال الدعوي.
- الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع، الخطيب البغدادي، تحقيق: د. محمود الطحان، مكتبة المعارف – الرياض.
- الخلاصة البهية بترتيب أحداث السيرة النبوية، وحيد بن بالي. طبعة دار الفوائد.2007م.
- الخلاصة في فقه الدعوة، علي بن نايف الشحود، دار المعمور ماليزيا، ط1: 1430هـ-2003م.
- دلائل النبوة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة، أبو بكر البيهقي، دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة: الأولى - 1405 هـ
- الروض الأنف، السهيلي، تحقيق: عمر عبد السلام السلامي، دار إحياء التراث العربي، الطبعة الأولى، 1421هـ/ 2000م.
- زاد الداعية إلى الله. محمد بن صالح بن محمد العثيمين، دار الثقة للنشر والتوزيع، مكة المكرمة، الطبعة: الأولى، 1412 هـ - 1992 م.
- سنن الترمذي، محمد بن عيسى الترمذي، تحقيق: بشار عواد معروف، طبع دار الغرب الإسلامي – بيروت، 1998 م.
- سيرة ابن إسحاق (كتاب السير والمغازي)، تحقيق: سهيل زكار، طبع: دار الفكر – بيروت، الطبعة: الأولى 1398هـ /1978م.
- السيرة النبوية لابن هشام، تحقيق: مصطفى السقا وإبراهيم الأبياري وعبد الحفيظ الشلبي، مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر، الطبعة: الثانية، 1375هـ- 1955م.
- السيرة النبوية وأخبار الخلفاء، ابن حبان البُستي، تحقيق: السيد عزيز بك وجماعة من العلماء، الكتب الثقافية – بيروت، الطبعة: الثالثة - 1417 هـ
- الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، أبو نصر إسماعيل الجوهري الفارابي، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين – بيروت، الطبعة: الرابعة 1407 هـ - 1987 م.
- صحيح البخاري، دار طوق النجاة، الطبعة: الأولى، 1422هـ

- صحيح مسلم، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي – بيروت، بدون تاريخ.
- صيد الخاطر، ابن الجوزي، طبع: دار القلم – دمشق، الطبعة: الأولى1425هـ - 2004م.
- الطبقات الكبرى لابن سعد، تحقيق: زياد محمد منصور، مكتبة العلوم والحكم ، الطبعة: الثانية، 1408هـ
- فتح الباري لابن حجر، دار المعرفة - بيروت، 1379هـ
- فقه الدعوة إلى الله والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. أبو فيصل البدراني. دون تاريخ.
- فقه الواقع، أبو ياسر عيد بن محمد بيهي، الدار العالمية،2005م.
- كيفية دعوة الملحدين إلى الله تعالى في ضوء الكتاب والسنة، سعد بن وهف القحطاني، مطبعة سفير الرياض بدون تاريخ.
- لسان العرب لابن منظور، دار صادر، الطبعة: الثالثة - 1414 هـ
- معجم مقاييس اللغة، أحمد بن فارس، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، طبع: دار الفكر، عام النشر: 1399هـ - 1979م.
- المغرب في ترتيب المعرب، ناصر بن عبد السيد أبى المكارم ابن على أبو الفتح برهان الدين الخوارزمي المُطَرِّزِىّ، دار الكتاب العربي، بدون طبعة وبدون تاريخ.
- المنتظم في تاريخ الأمم والملوك، ابن الجوزي، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة: الأولى، 1412 هـ - 1992 م.
- موقع.www.noslih.com

الرحمة في حياة النبي صلى الله عليه وسلم
وتجليات عالميتها

الأستاذة: أسماء بابني
طالبة باحثة بكلية العلوم الإنسانية والاجتماعية
جامعة ابن طفيل، القنيطرة

ملخص

يتناول هذه البحث موضوع " الرحمة في حياة النبي صلى الله عليه وسلم وتجليات عالميتها"، وأبرز أسباب اختياره، رغبتي في إظهار ملامح الرحمة النبوية للعالم علّها تساعد ولو بالقليل للخروج من الأزمات التي يعاني منها في كل مكان، كما يهدف هذا البحث إلى تحقيق التحلي بهذا الخلق النبيل، وكذا إظهار عالمية الرحمة الإسلامية التي شملت كل فئات المجتمع، وتجيب هذه الدراسة على مجموعة من التساؤلات أهمها: ما المفهوم اللغوي والاصطلاحي للرحمة؟ كيف ترجم النبي صلى الله عليه وسلم خلق الرحمة في حياته؟ وما هي تجليات عالمية هذه الرحمة؟ ويسعى في الإجابة عليها وفق المنهج الاستقرائي والمنهج التحليلي، وذلك خلال ثلاثة مطالب هي: مفهوم الرحمة وأهميتها، الرحمة في حياة النبي صلى الله عليه وسلم، تجليات عالمية الرحمة، وقد خلصت الدراسة إلى نتائج أهمها: فضل وأهمية الرحمة والتي تتجلى في اتصاف الله تعالى بها ونبيه صلى الله عليه وسلم، حاجتنا للتخلق بخلق الرحمة، بصفتها الخلق القويم والأنبل للعيش الكريم فهي سبيل للترابط والتكافل والتلاحم المجتمعي.

الكلمات المفتاحية: الرحمة، حياة النبي صلى الله عليه وسلم، العالمية.

مقدمة:

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمدا عبده ورسوله خير البرية وهادي البشرية، الرحمة المهداة، والنعمة المسداة، إمام المتقين، المبعوث رحمة للعالمين. صلوات ربي وسلامه عليه إلى آخر يوم الدين.

أما بعد:

يتعرض موضوع هذا البحث والموسوم ب: " الرحمة في حياة النبي صلى الله عليه وسلم وتجليات عالميتها "إلى بيان ملامح الرحمة النبوية باعتبارها من أنبل الشيم والأخلاق، وسبيلا لسعادة الأمم، واطمئنان النفس، وتحقيق الأمن الدنيوي، وإلى إظهار شمولية وعالمية هذه الرحمة وبأنها ليست محدودة بالزمان أو المكان أو الأشخاص، وإنما هي لكل العالمين، منذ بعثته صلى الله عليه وسلم إلى يوم القيامة.

أهمية البحث:

لقد اكتسى هذا الموضوع أهمية كبرى ومكانة خاصة من حيث كونه:

- يعالج موضوع الرحمة في حياة النبي صلى الله عليه وسلم، باعتبارها أعلى رتبة للرحمة عرفتها البشرية حين أثنى الله عليه بقوله " وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين[1]".

- الحاجة الملحة في إظهار ملامح الرحمة النبوية للعالم، علّها تساعده ولو بالقليل للخروج من الأزمات التي يعاني منها في كل زمان ومكان.

إشكالية البحث:

يجيب هذا البحث على مجموعة من التساؤلات أهمها:

ما المفهوم اللغوي والاصطلاحي للرحمة؟ كيف ترجم النبي صلى الله عليه وسلم خلق الرحمة في حياته؟ وما هي تجليات عالمية هذه الرحمة؟

أهداف البحث:

يهدف هذا البحث إلى :

- تحقيق التحلي بخلق الرحمة فهو سبيل لمحبة الله ومحبة الناس.

- نُعرف الآخر برحمة الإسلام الواسعة التي لا تؤذي غير المسلمين، ولا تضطهد عقائدهم، ولا تنتقص من حقوقهم، بل هي نموذج في التعايش مع الآخر وقبول الاختلاف.

خطة البحث:

لقد جعلت موضوع بحثي هذا منحصرا في مقدمة وثلاثة مطالب ثم ذيلته بخاتمة فكان التصميم كالتالي:

مقدمة: ففيها التعريف بالبحث، وأهميته، وإشكاليته، وأهدافه، وخطته.

المطلب الأول: قمت فيه بتحديد مفهوم الرحمة، وبيان وأهميتها.

المطلب الثاني: تناولت فيه الرحمة في حياة النبي صلى الله عليه وسلم من خلال نقطتين.

المطلب الثالث: حاولت من خلاله تجلية عالمية رحمة النبي صلى الله عليه وسلم.

- خاتمة: بينت خلالها أهم النتائج التي توصلت إليها خلال البحث.

وأسأل الله تعالى أن يلهمنا الرشد والصواب، ويتقبل عملنا إنه ولي ذلك والقادر عليه.

المطلب الأول: مفهوم الرحمة، وأهميتها.

أولا: مفهوم الرحمة:

أ- الرحمة في اللغة: قال الجوهري في الصحاح: الرحمة: الرقة والتعطف[2].

(1)- سورة الأنبياء الآية (107).

(2) الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، المؤلف: أبو نصر إسماعيل بن حماد الجوهري الفارابي (ت 393هـ)، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار (1929/5).

قال ابن فارس: «رحم» الراء والحاء والميم أصلٌ واحدٌ يدلُّ على الرّقّة والعطف والرأفة. يقال من ذلك رَحِمَه يَرْحَمُه، إذا رَقَّ له وتعطَّفَ عليه. والرُّحُم والمَرْحَمَة والرَّحْمة بمعنىً.(1)

ومن خلال هذا التعريف نلحظ أن الرحمة بمعناها اللغوي اسم جامع يشمل معاني عديدة منها : الرقة، العطف والرأفة. وقد أشار العلماء إلى وجود عموم وخصوص مطلق بين مصطلحي الرحمة والرأفة رغم الترادف الحاصل بينما.

ب- الرحمة اصطلاحا:

قيل هي "رقة في النفس تبعث على سوق الخير لمن تتعدى إليه"(2).

وقال عبد الرحمن الميداني:"الرحمة رقة في القلب يلامسها الألم حينما تدرك الحواس أو يتصور الفكر وجود الألم عند شخص آخر أو يلامسها السرور حينما تدرك الحواس أو يتصور الفكر وجود المسرة عند شخص آخر"(3).

وقد أشار ابن القيم رحمه الله تعالى إلى أن مقتضى الرحمة هو إيصال الخير إلى الغير، حتى وإن كان هذا الخير مكروهاً إليه مبغضاً من قبله، حين قال " الرحمة صفة تقتضي إيصال المنافع والمصالح إلى العبد وإن كرهتها نفسه وشقت عليها فهذه هي الرحمة الحقيقية فأرحم الناس بك من شق عليك في إيصال مصالحك ودفع المضار عنك"(4).

ثانيا: أهمية الرحمة:

يمكن تجلية أهمية الرحمة في النقاط التالية:

✓ أنها صفةٌ من صفات المولى، قال تعالى: ﴿**الرحمان الرحيم**﴾(الفاتحة: 2) ، وقال أيضا: ﴿**وَلَوْلاَ فَضْلُ اللهِ عَلَيْكُم ورحمته لمسكم فيما أفضتم فيه عذاب عظيم**﴾(سورة النور: 14) وقال أيضا: ﴿**كتب ربكم على نفسه الرحمة أنه من عمل منكم سوءا بجهالة ثم تاب من بعده وأصلح فإنه غفور رحيم**﴾(الأنعام: 54)

وفي الحديث المتّفق عليه عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: "قدِم على رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بسبْيٍ، فإذا امرأةٌ من السَّبيِ تسعَى، إذ وجدت صبيًّا في السَّبيِ فأخذته وألصقته ببطنِها وأرضعته، فقال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: (**أترون هذه طارحةً ولدَها في النَّارِ؟ قلنا: لا واللهِ، وهي تقدرُ أن لا تطرحَه،**

(1) معجم مقاييس اللغة، أحمد بن فارس بن زكرياء القزويني الرازي، أبو الحسين (ت 395ه)،المحقق: عبد السلام محمد هارون (498/2).

(2) التحرير والتنوير لمحمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور التونسي (ت:1393 ه)(21/26).

(3) الأخلاق الإسلامية وأسسها،عبد الرحمان حسن حبنكة الميداني. (3/2).

(4) إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان، محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية (ت ٧٥١ه)،المحقق: محمد حامد الفقي، (174/2).

فقال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: اللهُ أرحمُ بعبادِه من المرأةِ بولدِها)[1]، والسبي هو ما يؤخذ من الكفار حال الحرب.

- ✓ كونها ركيزة من أهم الركائز التي يقوم عليها المجتمع المسلم بجميع أفراده، يستشعرون من خلالها معنى الوحدة والألفة فيصيرون كالجسد الواحد الذي يشتكي إذا اشتكى منه عضو، تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى.

قال عليه الصلاة والسلام: **(مَثَلُ المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم، مثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو، تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى)**[2]".

- ✓ خلقٌ عظيمٌ من مكارم الأخلاق التي دعا إليها الإسلام، فالتّحلّي بهذه الخصلة الحسنة، سبيل لفوز العبد في الدنيا والآخرة.

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "ليس منا من لم يرحم صغيرنا، ويعرف شرف كبيرنا[3]"

- ✓ أن أهلها مخصوصون برحمة الله تبارك وتعالى دون سواهم.

قال الرسول صلى الله عليه وسلم: "الراحمون يرحمهم الرحمن. ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء[4]".

المطلب الثاني: الرحمة في حياة النبي صلى الله عليه وسلم

الرحمة في حياة النبي صلى الله عليه وسلم يمكن تجسيدها في نقطتين أساسيتين:

الأولى: تخلقه وتحليه صلى الله عليه وسلم بخلق الرحمة:

لقد شهد القرآن الكريم على رفعة أخلاق وخصال النبي صلى الله عليه وسلم حين زكى الله تعالى خلقه فقال: ﴿**وإنك لعلى خلق عظيم**﴾(القلم: 4)

وشهدت بذلك السيدة عائشة رضي الله عنها وأرضاها حين قالت حينما سئلت عن خلقه صلى الله عليه وسلم فقالت" كان خلقه القرآن[5]".

(1) صحيح مسلم أبو الحسين مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري (٢٠٦ - ٢٦١ ه)المحقق: محمد فؤاد عبد الباقي ، كتاب التوبة، باب في سعة رحمة الله تعالى وأنها سبقت غضبه، رقم (4/ 2109) رقم (2754).

(2)- صحيح مسلم أبو الحسين مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري (٢٠٦ - ٢٦١ ه) تحقيق : محمد فؤاد عبد الباقي ، كتاب البر والصلة والآداب، باب تراحم المؤمنين وتعاطفهم، وتعاضدهم، (1999/4) الحديث رقم(2586).

(3)- سنن أبي داوود أبو داود، سليمان بن الأشعث بن إسحاق بن بشير بن شداد بن عمرو الأزدي السِّجِسْتاني (ت ٢٧٥ه)، تحقيق : محمد محيي الدين عبد الحميد، كتاب الأدب، باب في تنزيل الناس منازلهم (4/ 261)، الحديث رقم: (4842).

(4)- الجامع الكبير سنن الترمذي لأبي عيسى محمد بن عيسى الترمذي (ت ٢٧٩ ه)حققه وخرج أحاديثه وعلق عليه: بشار عواد معروف (483/3) برقم(1924).

(5)- الأدب المفرد لمحمد بن إسماعيل البخاري (ت ٢٥٦ ه) تحقيق : محمد فؤاد عبد الباقي، ص115 برقم (308).

قال الطاهر ابن عاشور في تفسيره: "يعني أن محمدًا صلى الله عليه وسلم فطر على خلق الرحمة في جميع أحوال معاملته الأمة لتكون مناسبة بين روحه الزكية وبين ما يلقى إليه من الوحي بشريعته التي هي رحمة حتى يكون تلقيه الشريعة عن انشراح نفس أن يجد ما يوحى به إليه ملائما رغبته وخُلقه.

قالت عائشة رضي الله عنها: "كان خلقه القرآن[1]"، ولهذا خص الله محمدًا صلى الله عليه وسلم في هذه السورة بوصف الرحمة ولم يصف به غيره من الأنبياء، وكذلك في القرآن كله، قال تعالى:﴿ **لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌعَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ**﴾ (التوبة: 128) وقال تعالى: ﴿**فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ الله لِنْتَ لَهُمْ**﴾ (آل عمران: 159) أي برحمة جبلك عليها وفطرك بها فكنت لهم لينا"[2].

هذا الخلق العظيم الذي اتصف به سيد الخلق وإمام العالمين محمد صلى الله عليه وسلم تجسد في كل وقائع حياته صلى الله عليه وسلم، أضحى له خلق عجيبا، أبهر الجميع، حيث كان حريصا على الناس من أجل اتباع المنهج الصحيح الذي يؤدي بهم إلى الفلاح في الدنيا والآخرة قال تعالى: ﴿**فلعلك باخع نفسك على آثارهم إن لم يؤمنوا بهذا الحديث إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفا**﴾(الكهف: 6).

وكان منهجه الرحمة والعطف والرأفة بالناس وقد حكى لنا الله تعالى هذا المنهج في كتابه العزيز فقال تعالى: ﴿**فبما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظا غليظ القلب لا انفضوا من حولك فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم في الأمر فإذا عزمت فتوكل على الله إن الله يحب المتوكلين**﴾(آل عمران: 159)

وهنا أذكر بعض مواقف رحمة النبي صلى الله عليه وسلم على سبيل المثال لا الحصر، وإلا فالأمثلة كثيرة:

أ_ رحمته صلى الله عليه وسلم بالعبيد والخدم:

لقد اهتم النبي صلى الله عليه وسلم بالخدم والعبيد وأوصى بهم خيرا.

فها هو أنس رضي الله عنه خادم النبي صلى الله عليه وسلم يحدثنا عن رحمته ووصيته صلى الله عليه وسلم بالخدم قال "خدمت رسول الله صلى الله عليه وسلم عشر سنين. والله! ما قال لي: أفا قط. ولا قال لي لشيء: لم فعلت كذا؟ وهلا فعلت كذا[3] "

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: " ما ضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم شيئا قط بيده، ولا امرأة، ولا خادما، إلا أن يجاهد في سبيل الله، وما نيل منه شيء قط، فينتقم من صاحبه، إلا أن ينتهك شيء من محارم الله، فينتقم لله عز وجل[4] ".

(1)- سبق تخريجه.

(2)- التحرير والتنوير لمحمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور التونسي (ت: ١٣٩٣هـ)، (166/17).

(3)-صحيح مسلم أبو الحسين مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري (٢٠٦ - ٢٦١ هـ)المحقق: محمد فؤاد عبد الباقي (1804/4) برقم (2309).

(4)- صحيح مسلم أبو الحسين مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري (٢٠٦ - ٢٦١ هـ)المحقق: محمد فؤاد عبد الباقي (4/ 1814)، برقم (2328).

كما حذر النبي صلى الله عليه وسلم من ضرب العبد أو إيذائه، فعن أبي مسعود الأنصاري رضي الله عنه قال: "كنت أضرب غلاماً لي، فسمعتُ مِنْ خَلْفِي صوتا: اعلم أبا مسعود : لله أَقدر عليك منك عليه، فالتفت فإذا هو رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقلت: يا رسول الله، هو حر لوجه الله . فقَال: أما إنك لو لم تفعل للفحتك النار أَو لمستك النار[1]".

ب- رحمته صلى الله عليه وسلم بالنساء:

ظهرت رحمته صلى الله عليه وسلم بالنساء حين أرشد الأزواج إلى معاشرة أزواجهن بالمعروف، قال تعالى: ﴿ **وعاشروهن بالمعروف**﴾(النساء: 19) "

وإلى إحسان صحبتهن، فقال صلى الله عليه وسلم: **(ألا واستوصوا بالنساء خيرًا؛ فإنما هن عوانٍ عندكم).**(2)

وقال عليه الصلاة والسلام: **(خيرُكم خيركم لأهله، و أنا خيركم لأهلي)**(3)".

وبشر الآباء بالجنة على حسن تربية البنات، فقال: "لا يكون لأحدكم ثلاث من البنات أو ثلاث أخوات فيحسن إليهن إلا دخل الجنة(4)".

ج- رحمته صلى الله عليه وسلم بأمته خاصة:

لقد أظهرت رحمة النبي صلى الله عليه وسلم بأمته أرقى معاني الرأفة والعطف والشفقة من ذلك:

- ✓ ادخار إجابة دعوته إلى يوم القيامة:

قال صلى الله عليه وسلم: **(لكل نبي دعوة مستجابة يدعو بها، فيستجاب له فيؤتاها، و إني اختبأت دعوتي شفاعة لأمتي يوم القيامة)**[5]

- ✓ حمله صلى الله عليه وسلم هم أمته التي أظهرت كمال رأفته:

عن عبد الله بن عمرو بن العاص؛ أن النبي صلى الله عليه وسلم تلا قول الله عز وجل في إبراهيم: ﴿**رب إنهن أضللن كثيرا من الناس فمن تبعني فإنه مني**﴾(ابراهيم: 36) وقال عيسى عليه السلام: ﴿**إن تعذبهم**

(1)- صحيح مسلم أبو الحسين مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري (٢٠٦ - ٢٦١ ه)المحقق: محمد فؤاد عبد الباقي (1281/3). برقم (1659).

(2) الجامع الكبير سنن الترمذي لأبي عيسى محمد بن عيسى الترمذي (ت ٢٧٩ ه)حققه وخرج أحاديثه وعلق عليه: بشار عواد معروف،(2/ 455) برقم (1163).

.(3)- الجامع الكبير سنن الترمذي لأبي عيسى محمد بن عيسى الترمذي (ت ٢٧٩ هـ)حققه وخرج أحاديثه وعلق عليه: بشار عواد معروف (188/6). الرقم (3895)

(4) الجامع الكبير سنن الترمذي لأبي عيسى محمد بن عيسى الترمذي (ت ٢٧٩ ه)حققه وخرج أحاديثه وعلق عليه: بشار عواد معروف (474/3). برقم (1912).

(5)- الجامع الكبير سنن الترمذي لأبي عيسى محمد بن عيسى الترمذي (ت ٢٧٩ ه)حققه وخرج أحاديثه وعلق عليه: بشار عواد معروف (189/1). برقم(199).

فإنهم عبادك و إن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم﴾(المائدة: 118) فرفع يديه وقال "اللهم! أمتي أمتي" وبكى. فقال الله عز وجل: يا جبريل! اذهب إلى محمد، وربك أعلم، فسله ما يبكيك؟ فأتاه جبريل عليه الصلاة والسلام فسأله. فأخبره رسول الله صلى الله عليه وسلم بما قال. وهو أعلم. فقال الله: يا جبريل! اذهب إلى محمد فقل: **(إنا سنرضيك في أمتك ولا نسوءك)**[1]".

د- رحمته صلى الله عليه وسلم بالحيوان:

ترجم لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم الرحمة في أسمى معانيها، التي بلغت الإحسان والرفق حتى بالحيوانات.

قال صلى الله عليه وسلم: **(إن الله كتب الإحسان على كل شيء. فإذا قتلتم فأحسنوا القتلة. وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبح. وليحد أحدكم شفرته. فليرح ذبيحته)**[2].

•وقال أيضا عليه أفضل الصلاة والسلام: **(عذبت امرأة في هرة سجنتها حتى ماتت فدخلت فيها النار، لا هي أطعمتها وسقتها، إذ حبستها، ولا هي تركتها تأكل من خشاش الأرض)**[3].

•وقال عليه الصلاة والسلام أيضا: **(بينما رجل يمشي بطريق، اشتد عليه العطش. فوجد بئرا فنزل فيها فشرب، ثم خرج، فإذا كلب يلهث يأكل الثرى من العطش. فقال الرجل: لقد بلغ هذا الكلب من العطش مثل الذي كان بلغ مني. فنزل البئر فملأ خفه ماء ثم أمسكه بفيه حتى رقي. فسقى الكلب فشكر الله له. فغفر له " قالوا يا رسول الله! وإن لنا في هذه البهائم لأجرا؟ فقال" في كل كبد رطبة أجر)**[4]

هذه الرحمة التي بلغت حتى الحيوانات هي التي جعلت العرب زمن النبي صلى الله عليه وسلم ينساقون وراء هديه عليه الصلاة والسلام بدون استئذان، وقد أحسن عمر ابن الخطاب حين صور لنا هذا الحال بقوله" كانت العرب أُسدا في جزيرتها يأكل بعضها بعضا، فلما جمعهم الله بمحمد لم يقم لها شيء(5)"

يعني أن جميع معتقداتهم نُسفت أمام هذا النبي الرحيم، ألا ما أعظمك يا نبي في أقل من ربع قرن، استطاع أن يروّض هذه الأسد ويجعلنا تتغير، ويصنع منها إنسانا جديدا، بلينه ورأفته وشفقه وعطفه.

الثانية: كون شريعته صلى الله عليه وسلم مبنية على أساس الرحمة:

(1)- صحيح مسلم أبو الحسين مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري (٢٠٦ - ٢٦١ ه)المحقق: محمد فؤاد عبد الباقي (191/1)، برقم (202).

(2)- صحيح مسلم أبو الحسين مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري (٢٠٦ - ٢٦١ ه)المحقق: محمد فؤاد عبد الباقي (1548/3)، برقم (1955).

(3)- صحيح مسلم أبو الحسين مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري (٢٠٦ - ٢٦١ ه)المحقق: محمد فؤاد عبد الباقي (1760/4)، برقم(6646).

(4)- صحيح مسلم أبو الحسين مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري (٢٠٦ - ٢٦١ ه)المحقق: محمد فؤاد عبد الباقي (1861/4)، برقم (2244).

(5)- نثر الدر في المحاضرات لمنصور بن الحسين الرازي، تحقيق: خالد عبد الغني محفوظ (18/2).

من رحمة الله تعالى بعباده أن جاءت شريعته مراعية لمقصد الرحمة بالعباد، من خلال رفع الحرج عنهم، وجلب المصلحة لهم.

جاء في القرآن الكريم الذي هو منبع التشريع قول الله تعالى: ﴿**ونزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شيء وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين**﴾(النحل: 89)، وقال أيضا: ﴿**ونزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمومنين**﴾(الإسراء: 82).

فمنهج القرآن الرحمة بتشريعاته التي تقتضي ترفع الحرج والمشقة والعنت على الناس، وتجعل المصلحة العامة مقصدا من مقاصده(1).

هذا المنهج الرفيع هو ما جسده الإمام ابن القيم حين قال وقولته البليغة المعنى العميقة المرمى "فَإِن الشَّرِيعَة مبناها وأساسها على الحكم ومصالح الْعباد، فِي المعاش والمعاد، وَهِي عدل كلهَا، وَرَحْمَة كلهَا، ومصالح كلهَا، وَحِكْمَة كلهَا، فَكل مَسْأَلَة خرجت عَن الْعدْل إِلَى الْجور، وَعَن الرَّحْمَة إِلَى ضدها، وَعَن الْمصلحَة إِلَى الْمفْسدَة، وَعَن الْحِكْمَة إِلَى الْعَبَث فليستْ من الشَّرِيعَة، وإِنْ أُدخلتْ فِيهَا بالتأويل، فالشريعة عدل الله بَين عباده، وَرَحمته بَين خلقه، وظله فِي أرضه وحكمته الدَّالَّة عَلَيْهِ وعَلى صدق رَسُوله صلى الله عَلَيْهِ وَسلم أتم دلَالَة وَأصْدقهَا[2].. "

وبناء على هذا القول إن التشريع إذا خرج عن مقصد الرحمة فليس بتشريع. وفي نفس السياق يقول العز بن عبد السلام: "والشريعة كلها مصالح إما تدرأ مفاسد أو تجلب مصالح[3]"

وهو نفس المعنى الذي أشار إليه الشاطبي حين قال: "المعلوم من الشريعة، أنها شرعت لمصالح العباد، فالتكليف كله، إما لدرء مفسدة، وإما لجلب مصلحة، أولهما معا[4]"

ولكون الشريعة رحمة بالعالمين فإنها تقتضي جلب المصلحة لهم ودفع المفسدة عنهم.

وهذا الأمر ملحوظ ومُشاهد في معظم مجلات التشريع الإسلامي، عبادات، ومعاملات وغيرها.

المطلب الثالث: تجليات عالمية رحمة النبي صلى الله عليه وسلم

إن مما تجدر الإشارة إليه في مطلع هذا المطلب هو أن نعرف معرفة يقينية أن الرحمة منهج إلهي وقانون سماوي في التعامل مع المسلمين وغير المسلمين، فمن هنا ينبع جمال المنهج الإلهي الذي تبرز فيه هذه الرحمة العالمية التي تشمل جميع أطياف العالم أجمع، في كون هذه الرحمة ليست قانونا بشريا يصطلح الناس على إقراره أو إلغائه .. ولكنها تعتبر قانونا إلهيا سماويا يتعبد المسلمون لربهم بتطبيقه: ﴿**لا**

(1) أخلاق الإسلام وأخلاق دعاته، ربيع ابراهيم محمد الشيخ ص (262).

(2) إعلام الموقعين عن رب العالمين، محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية (ت ٧٥١هـ)، تحقيق: محمد عبد السلام إبراهيم، (3/ 14- 15).

(3) قواعد الأحكام في مصالح الأنام للعز بن عبد السلام (11/1).

(4) الموافقات أبو إسحاق إبراهيم بن موسى بن محمد اللخمي الشاطبي (ت ٧٩٠ هـ)، المحقق: أبو عبيدة مشهور بن حسن آل سلمان (318/1).

يَنْهَاكُمُ اللهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾(الممتحنة: 8).

من خلال هذه الآية تبرز رحمة الله وعظمته في التعامل مع غير المسلمين، حيث أخبر ابن كثير في تفسيره " أن تبروهم" أي تحسنوا إليهم[1]. وإذا كان هذا القانون - الرحمة بالعالمين- معجزا في سموه ورقيه، فقد كانت سيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم معجزة أيضا في تطبيق هذا القانون وممارسته[2].

وإن من تجليات عالمية رحمة الله تعالى أن أرسل رسوله محمد صلى الله عليه وسلم رحمة للعالمين شملت المؤمن والكافر، والبر والفاجر. فقال الله تعالى في حقه :﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ﴾[سورة الأنبياء الآية (107]، قال ابن عباس : "من آمن بالله واليوم الآخر كُتبت له الرحمة في الدنيا والآخرة، ومن لم يؤمن بالله ورسوله عُوفِيَ مما أصاب الأمم من الخَسْف والقذف.[3]"، وروي عنه أيضا " أن الله أرسل نبيه محمدا صلى الله عليه وسلم رحمة لجميع العالم، مؤمنهم، وكافرهم. فأما مؤمنهم فإن الله هداه به، وأدخله بالإيمان به ، وبالعمل بما جاء من عند الله الجنة. وأما كافرهم فإنه دفع به عنه عاجل البلاء الذي كان ينزل بالأمم المكذبة رسلها من قبله [4] "

فمما لا شك فيه أن الرسول صلى الله عليه وسلم جاء رحمة للبشرية، وإخراجا لها من الظلمات إلى النور وقد صرح بهذا فقال عليه أفضل السلام وأزكاه **(إنما أنا رحمة مهداة)**[5]. وإذا تأملنا هذا الحديث النبوي نلحظ أن قوله عليه الصلاة والسلام "رحمة مهداة" هي عبارة مطلقة عامة غير مقيدة ولا خاصة، الشيء الذي يدل ويخبر أنه عليه الصلاة والسلام بعث رحمة بالعالم أجمع دون تمييز بعضه عن بعض.

فقد كانت رحمته صلى الله عليه وسلم رحمة عجيبة، شملت قوما خالفوا منهجه، وأنكروا الرسالة، ورفضوا النبوية، وعبدوا غير الله تعالى. مما يدل على أن هذه الرحمة خير دليل على أنه صلى الله عليه وسلم كان "رحمة للعالمين" ، بالمفهوم الشامل الواسع لكلمة "العالمين"، فهي لم تقتصر على المسلمين فحسب وإنما تعدت إلى غير المسلمين، لأنه عليه الصلاة والسلام أرسل للناس كافة بهذا الدين وتعاليمه السمحة وهو المتجسد في قال الله تعالى: ﴿**وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ كَافَّةً لِّلنَّاسِ**﴾ (سبأ: 28)، وقوله: ﴿**قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا**﴾ (الأعراف: 158)، وقوله ﴿**تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا**﴾ (الفرقان: 13)،

(1) تفسير القرآن العظيم، المؤلف: أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري ثم الدمشقي (ت ٧٧٤ هـ)، المحقق: محمد حسين شمس الدين (447/4).

(2) الرحمة في حياة الرسول صلى الله عليه وسلم للدكتور راغب السرجاني (220-221) بتصرف.

(3) جامع البيان عن تأويل آي القرآن، أبو جعفر محمد بن جرير الطبري (16/ 440).

(4) جامع البيان عن تأويل آي القرآن، أبو جعفر محمد بن جرير الطبري (441/16).

(5) إتحاف المهرة بالفوائد المبتكرة من أطراف العشرة،لابن حجرالعسقلاني، تحقيق : مركز خدمة السنة والسيرة (611/14) برقم (18339).

فشريعته صلى الله عليه وسلم واسعة الرحمة للناس كافة دون تمييز بعضهم عن بعض، قال تعالى: ﴿**وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ**﴾(الأعراف: 156).

قال الإمام الطاهر ابن عاشور عن هذه الآية: " ففي الآية إلى أن المراد رحمة هي عامة فامتازت شريعة الإسلام بأن الرحمة ملازمة للناس بها في سائر أحوالهم وأنها حاصلة بها لجميع الناس لا لأمة خاصة" [(1)].

ويمكن إظهار عالمية هذه الرحمة في شخص النبي صلى الله عليه، فيمن آذاه من غير المسلمين:

في يوم العقبة:

عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت لرسول الله صلى الله عليه وسلم: يا رسول الله هل أتى عليك يوم كان أشد من يوم أحد؟ فقال: **(لقد لقيت من قومك وكان أشد ما لقيت منه يوم العقبة إذ عرضت نفسي على بن عبد يالِيل بن عبد كُلال فلم يجبني إلى ما أردت فانطلقت و أنا مهموم على وجهي فلم أستفق إلا بقرن الثَّعالب فرفعت رأسي فإذا أنا بسحابة قد ظللتني فنظرت فإذا فيها جبريل عليه السلام فناداني فقال إن الله قد سمع قول قومك لك وما ردوا عليك وقد بعث إليك ملك الجبال لتأمره بما شئت فيهم قال فناداني ملك الجبال وسلم عليّ ثم قال: يا محمد إن الله قد سمع قول قومك لك وقد بعثني ربك إليك لتأمرني بأمرك فيما شئت إن شئت أطبقت عليهم الأخشبين، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله لا يشرك به شيئا)**[(2)].

- **غزوة أحد:**

تجلت رحمة النبي صلى الله عليه وسلم بغير المسلمين في غزوة أحد في أسمى صورها لما شج وجهه فشق ذلك على أصحابه فقالوا: لو دعوت عليهم فقال: "إني لم أبعث لعانا وإنما بعثت رحمة[(3)]".

- **دستور المدينة:**

كما تظهر هذه الرحمة العالمية واضحة المعالم في البنود التي سطرها النبي صلى الله عليه وسلم حال دخوله للمدينة المنورة التي حددت التراحم بين المسلمين وغيرهم من الطوائف، نذكر منها على سبيل المثال:

- وحدة الأمة من غير تفرقة بينها.
- تساوي أبناء الأمة في الحقوق والكرامات. ولنضع سطرا تحت كلمة الأمة.
- لغير المسلمين دينهم وأموالهم، لا يجبرون على دين المسلمين، ولا تؤخذ منهم أموالهم[(4)].

(1) التحرير والتنوير،محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور التونسي (المتوفى : ١٣٩٣هـ) (167/17).

(2)) صحيح مسلم أبو الحسين مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري (٢٠٦ - ٢٦١ هـ)المحقق: محمد فؤاد عبد الباقي (1420/3) برقم (1795)

(3) صحيح مسلم أبو الحسين مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري (٢٠٦ - ٢٦١ هـ)المحقق: محمد فؤاد عبد الباقي (2006/4) برقم(2599).

(4) السيرة النبوية لعبد الملك بن هشام بن أيوب الحميري المعافري، أبو محمد، جمال الدين (ت ٢١٣ هـ)، المحقق: طه عبد الرءوف سعد(106/2).

وهو المتجلي في قول الله تعالى: ﴿**لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ**﴾[1]".إن هذه البنود أبانت على أن مبدأ الرحمة والتعاون على البر والتقوى وحب الخير للغير من أبرز الشعارات التي تنادي بها الدولة الإسلامية فهي قائمة على أقوم المبادئ وأعدلها، أينما كانت. وهي الغاية العظمى التي من أجلها بُعث نبي الرحمة، فعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: **(إنما بعثت لأتمم صالح الأخلاق)**[2]".

نتائج البحث

1- الرحمة اسم جامع يشمل الرأفة والرقة والعطف.

2- الرحمة شعور وإحساس يقود الإنسان إلى فعل الخير للغير.

3- فضل وأهمية الرحمة والتي تتجلى في اتصاف الله تعالى بها ونبيه صلى الله عليه وسلم.

4- مواقف النبي صلى الله عليه وسلم في الرحمة، تبرهن على أنه النموذج الأمثل في تجسيد هذا الخلق النبيل.

5-الرحمة مقصد من مقاصد الشريعة الإسلامية.

6- حاجتنا للتخلق بخلق الرحمة، بصفتها الخلق القويم والأنبل للعيش الكريم، فهي سبيل للترابط والتكافل والتلاحم المجتمعي.

7_ الرحمة مبادرة إنسانية نبيلة تبرهن على سلامة حسنا الخلقي، ونضج إنسانيتنا.

8- شمولية وعالمية الرحمة التي تشمل المسلمين وغير المسلمين.

لقد حاولت خلال هذا البحث المتواضع أن أعرض معالم الرحمة النبوية، وتجليات عالميتها. وأرجوا أن أكون قد وفقت لتجلية ذلك على أحسن وجه مع الاعتراف بالعجز والتقصير.

والحمد لله كما ينبغي لجلال وجهه وعظيم سلطانه، وصلى الله على سيدنا محمد النبي، وأزواجه أمهات المومنين وذريته وأهل بيته الطيبين الطاهرين.

والحمد لله رب العالمين

(1) سورة البقرة الآية(256).

(2) الأدب المفرد لمحمد بن إسماعيل البخاري (ت ٢٥٦ ه) المحقق: محمد فؤاد عبد الباقي ص (104).برقم (273).

لائحة المصادر والمراجع:

- القرآن الكريم برواية ورش عن نافع.
- إتحاف المهرة بالفوائد المبتكرة من أطراف العشرة لابن حجر العسقلاني (ت : ٨٥٢هـ)، تحقيق : مركز خدمة السنة والسيرة، الناشر : مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف (بالمدينة) - ومركز خدمة السنة والسيرة النبوية (بالمدينة) الطبعة : الأولى ، ١٤١٥ هـ - ١٩٩٤ م.
- أخلاق الإسلام وأخلاق دعاته، ربيع ابراهيم محمد الشيخ.
- إعلام الموقعين عن رب العالمين، المؤلف: محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية (ت ٧٥١هـ)، تحقيق: محمد عبد السلام إبراهيم، الناشر: دار الكتب العلمية، الطبعة: الأولى، ١٤١١هـ - ١٩٩١م.
- إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان، محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية (ت ٧٥١هـ)، المحقق: محمد حامد الفقي، الناشر: مكتبة المعارف.
- الأخلاق الإسلامية وأسسها، عبد الرحمان حسن حبنكة الميداني.
- الأدب المفرد لمحمد بن إسماعيل البخاري، المحقق: محمد فؤاد عبد والباقي: الناشر: المطبعة السلفية ومكتبتها - القاهرة، الطبعة: الثانية، ١٣٧٩م.
- التحرير والتنوير لمحمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور التونسي (ت: ١٣٩٣هـ) الناشر: الدار التونسية للنشر - تونس، سنة النشر: ١٩٨٤ هـ
- السيرة النبوية لابن هشام، المؤلف: عبد الملك بن هشام بن أيوب الحميري المعافري، أبو محمد، جمال الدين (ت ٢١٣ هـ)، المحقق: طه عبد الرؤوف سعد، الناشر: شركة الطباعة الفنية المتحدة.
- الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، المؤلف: أبو نصر إسماعيل بن حماد الجوهري الفارابي (ت ٣٩٣هـ)، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار، الناشر: دار العلم للملايين - بيروت الطبعة: الرابعة ١٤٠٧ هـ - ١٩٨٧ م.
- الموافقات أبو إسحاق إبراهيم بن موسى بن محمد اللخمي الشاطبي (ت ٧٩٠ هـ)، المحقق: أبو عبيدة مشهور بن حسن آل سلمان الناشر: دار ابن عفان الطبعة: الأولى، ١٤١٧ هـ - ١٩٩٧ م.
- تفسير الطبري. جامع البيان عن تأويل آي القرآن أبو جعفر محمد بن جرير الطبري، دار هجر للطباعة والنشر والتوزيع والإعلان.
- تفسير القرآن العظيم، المؤلف: أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري ثم الدمشقي (ت ٧٧٤ هـ)، المحقق: محمد حسين شمس الدين، الناشر: دار الكتب العلمية، الطبعة: الأولى - ١٤١٩ هـ

- سنن أبي داوود أبو داود، سليمان بن الأشعث بن إسحاق بن بشير بن شداد بن عمرو الأزدي السِّجِسْتاني (ت ٢٧٥هـ)، المحقق: محمد محيي الدين عبد الحميد، الناشر: المكتبة العصرية، بيروت.
- صحيح مسلم أبو الحسين مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري (٢٠٦ - ٢٦١ هـ)المحقق: محمد فؤاد عبد الباقي، الناشر: مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه، القاهرة، عام النشر: ١٣٧٤ هـ - ١٩٥٥م.
- قواعد الأحكام في مصالح الأنام للعز بن عبد السلام، مكتبة الكليات الأزهرية - القاهرة.
- لجامع الكبير سنن الترمذي لأبي عيسى محمد بن عيسى الترمذي (ت ٢٧٩ هـ)حققه وخرج أحاديثه وعلق عليه: بشار عواد معروف الناشر: دار الغرب الإسلامي - بيروت الطبعة: الأولى، ١٩٩٦ م.
- معجم مقاييس اللغة، أحمد بن فارس بن زكرياء القزويني الرازي، أبو الحسين (ت ٣٩٥هـ)، المحقق: عبد السلام محمد هارون، الناشر: دار الفكر، عام النشر: ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م.
- نثر الدر في المحاضرات لمنصور بن الحسين الرازي، أبو سعد الآبى (ت ٤٢١هـ)، المحقق: خالد عبد الغني محفوظ الناشر: دار الكتب العلمية - بيروت /لبنان، الطبعة: الأولى، ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٤م.
- الرحمة في حياة الرسول صلى الله عليه وسلم للدكتور راغب السرجاني، أستاذ بجامعة القاهرة.

